الإيغال في البلاغة العربية

تنظيرًا وتطبيقًا

إعداد الدكتور

محمود ياسين عوض سيد شناوي

أستاذ البلاغة والنقد المساعد، كلية اللغة العربية بالقاهرة

جامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

الإيغال في البلاغة العربية تنظيراً وتطبيقاً

محمود ياسين عوض سيد شناوي

قسم البلاغة والنقد، كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، القاهرة، مصر.

البريد الإلكتروني: mhahoh@gmail.com

الملخص:

هذا بحث في الإيغال؛ وهو نوع من أنواع الإطناب، كثر وروده في لغة العرب، شعرا ونثرا، وهو من الأساليب التي تشابكت شواهده مع غيره، فكانت الدراسة كاشفة عما يميزه عن غيره؛ حتى نرد كلَّ شاهد إلى ما يناسبه، وناقَشَت من أنكر وجوده في القرآن الكريم، في ضوء ما قاله أهل العلم؛ لنصل للرأي الأمثل فيها، وفي البيان النبوي لم يحظ الإيغال بدراسة مستقلة فيه، ثم بيّنت أولَّ من استخدم هذا النوع من الإطناب في شعره، وأولٍ من أطلق عليه مصطلح الإيغال، إلى غير ذلك من المسائل المهمة التي ناقشتها تلك الدراسة ....وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الكلمات المفتاحية: الإيغال، الإطناب، التتميم، التذييل، التكميل.

The position of Mu'tazilite thought on intercession for those who commit major sins

By: Mohamed Rushdy Ibrahim
Department of Doctrine and Philosophy, Islamic Girls College,
Assiut, Al-Azhar University, Egypt.
Email: m.roshdy77@azhar.edu.eg

abstract:
This study highlights the opinion of the Mu'tazila sect on the issue of intercession for those who commit major sins who died following monotheism, as it affirmed their position of denial and rejection. Because they believe that it is related to the origin of their five origins; It is the promise and the holiday, and those who claim that Muslims who commit major sins will live forever in hell, and their claim that pre-emption is only for those who repent and return to the disobedient and the rebellious, unless it is by raising the levels in Paradise; They support their opinion with evidence and suspicions. But there is a lot of evidence to support the accounts of these evidence and suspicions; Especially since this issue is an important doctrinal issue related to the fate and family of worship on the Day of Judgment, and there is much evidence of its proven and truth from the Holy Qur'an, the Sunnah of the Prophet, consensus, and reason.

Keywords of the research: major sins - Mu'tazila - Sunnis - doubts - promise and threat..

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدمـــة

الحمد لله رب العالمين، والصــلاة والســلام على خير خلقه أجمعين، ســيدنا محمد، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فمن المعلوم أن الإطناب طريق من طرق البيان، له من المزية -إذا وقع في موقعه اللائق به -ما له، يقول أبو هلال العســكري: "البيان لا يكون إلا بالإشــباع، والشــفاء لا يقع إلّا بالإقناع، وأفضــل الكلام أبينه، وأبينه أشــدّه إحاطة بالمعاني، ولا يحاط بالمعاني إحاطة تامّة إلّا بالاســتقصــاء؛ والإيجاز للخواصّ، والإطناب مشــترك فيه الخاصــة والعامة، والغبي والفطن، والريض والمرتاض؛ ولمعنى مّا أطيلت الكتب السلطانية في إفهام الرعايا."[(١)]

وصــور الإطناب كثيرة، منها " الإيغال"؛ وهو محور هذه الدراســة، كثُر وروده في العربية، حيث إنه يأتي بعد تتمة الكلام لنكتة يقتضــيها المقام، فتجد له من الرونق ما لا تجده إذا غاب عن الكلام، يقول قدامة بن جعفر (المتوفى: ٣٣٧ هـــ) في حديثه عن الإيغال:" حدثني التوزي قال: قلت للأصمعي: من أشعر الناس؟ فقال: من يأتي إلى المعنى الخسيس فيجعله بلفظه كبيراً، أو إلى الكبير فيجعله بلفظه خسيسـًا، أو ينقضي كلامه قبل القافية، فإذا احتاج إليها أفاد بها معنى."[(٢)]، فالإطناب عامة، والإيغال منه خاصــة، يمكن أن يجعل المعنى الخسيس عظيما، والعظيم خسيسا.

وتأتي أهمية هذه الدراســة في عدة أمور؛ منها أن الإيغال قد وقع الخلط بين شــواهده وبين بعض أنواع الإطناب الأخرى، فكان الأمر بحاجة إلى تجليته، وبيان الفرق بين هذه

(١) الصناعتين ١٩٠، المحقق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: المكتبة العنصرية – بيروت، عام النشر: ١٤١٩ هـ

(٢) نقد الشعر٦٤، الناشر: مطبعة الجوائب، القسطنطينية، الطبعة: الأولى١٣٠٢

الأنواع المتشابكة من الإطناب؛ حتى نرد كلَّ شاهد إلى ما يناسبه، ومنها اختلاف أهل العلم في وروده في القرآن الكريم؛ ما بين مؤيد لوجوده، ومانع له؛ إذ يجعله في الشعر خاصة لا يتجاوزه إلى الذكر الحكيم، ومن ثم عُنِيت الدراسةُ بمناقشة تلك المسائل في ضوء ما قاله أهل العلم؛ لبيان الرأي الأمثل فيها، ومنها قلة استشهاد البلاغيين عليه بآيات من القرآن الكريم؛ فما هي إلا شواهد معدودة لا تتجاوز أصابع اليدين، وفي البيان النبوي لم يحظ الإيغال بدراسة مستقلة فيه، والاستشهاد عليه في كتب أهل العلم يكاد يكون نادرا، إن لم يكن معدوما، ... إلى غير ذلك من المسائل المهمة التي يناقشها البحث. وقد اتكأ البحث على المنهج التاريخي في بعض المواضع، ثم المنهج التحليلي في مواضع أخرى.

هذا وقد جاء البحث في مقدمة، وتمهيد، وأربعة مباحث، وخاتمة، وثبت للمصادر والمراجع؛ ففي المقدمة تحدثت عن أهمية الموضوع وخطته ومنهجه، وفي التمهيد عرفت بالإيغال، ثم بيّنت العلاقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي، ثم تحدثت عن نشأة المصطلح، وأول من استخدم الإيغال في شعره، والدراسات السابقة.

وجاءت مباحثه على النحو الآتي:

المبحث الأول: الخلط بين الإيغال وغيره من أنواع الإطناب.

المبحث الثاني: الإيغال في الذكر الحكيم بين القبول والرد.

المبحث الثالث: الإيغال في القرآن مقاماته وأسراره.

المبحث الرابع: الإيغال في البيان النبوي مقاماته وأسراره.

ثم جاءت الخاتمة وفيها أهم نتائج البحث وتوصياته.

وبعد فإني أسأل الله -تعالى- أن يسامحني على ما وقعت فيه من خطأ أو تقصير، وأن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم، إنه نعم المولى ونعم النصير، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

تمهيـــد

تعريف الإيغال.

الإيغال مصـدر الفعل أوغل؛ بمعنى الدخول في الشـيء، يقال: "أوغلَ فِي الأَرْض، إِذا أبعد فِيهَا وكل دَاخل فِي شَيْء دخولَ مستعجلٍ فقد أوغلَ فِيهِ"(١)، وجاء في اللسـان:" أَوْغَلَ القومُ وتَوَغَّلوا إِذا أَمْعَنوا فِي السَّيْرِ. والوُغُول: الدُّخُولُ فِي الشَّيْءِ. والإِيغالُ: السَّير السريعُ، وَقِيلَ: الشَّدِيدُ والإِمْعانُ فِي السَّيْرِ ....وأَوْغَلَ الْقَوْمُ إِذا أَمْعَنوا فِي سَيرِهم داخِلين بَيْنَ ظَهْراني الجِبال أَو فِي أَرض العدُوِّ، وَكَذَلِكَ تَوَغَّلوا وتغَلْغَلوا، وأَما الوُغول فإِنه الدُّخول فِي الشَّـيْءِ وإِن لَمْ يُبعَد فِيهِ"(٢) ، وسـمي المعنى الاصـطلاحي إيغالا؛ لأن المتكلم قد تجاوز حد المعنى.(٣)

واصـطلاحا: عرفه أبوهلال:" هو أن يسـتوفى معنى الكلام قبل البلوغ إلى مقطعه؛ ثم يأتي بالمقطع فيزيد معنى آخر يزيد به وضوحا وشرحا وتوكيدا وحسنا"(٤)

وأوجز منه تعريف الخطيب " هو ختم البيت بما يفيد نكتة يتم المعنى بدونها كزيادة المبالغة في قول الخنساء:

وَإِنَّ صَـخْـراً لَـتَـأتَـمَّ الـهُـدَاةُ بِـهِ كَـأَنَّـهُ عَـلَـمٌ فِـي رَأسِـهِ نـارُ

لم ترضَ أن تشـبهه بالعلم الذي هو الجبل المرتفع المعروف بالهداية حتى جعلت في

---

(١) جمهرة اللغة: غلو، المحقق: رمزي منير بعلبكي، الناشر: دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٨٧م.

(٢) لسان العرب: وغل، الناشر: دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤١٤ هـ.

(٣) من كلام المرحوم الأستاذ الدكتور: محمد عبد المنعم خفاجي؛ في تعليقه الإيضاح، ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة٣/ ٢٠٣، المحقق: محمد عبد المنعم خفاجي، الناشر: دار الجيل – بيروت، الطبعة: الثالثة.

(٤) الصناعتين٣٨٠، المحقق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: المكتبة العنصرية – بيروت، عام النشر: ١٤١٩ هـ.

رأســه نارًا. [1]، فإن قولها:" كَأَنَّهُ عَلَمٌ " وافٍ بالمقصــود، وهو اقتداء الهداة، لكنها أتت بقولها:" فِي رَأسِهِ نارُ "إيغالا، وزيادة في المبالغة في التشبيه.

العلاقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي:

العلاقة بين المعنيين واضــحة؛ فالمتكلم قد أتمّ كلامه وفكرته، ثم أتي بلفظ الإيغال لفائدة؛ وذلك مثل الذي دخل أرضـا، ثم أوغل فيها حتى تجاوزها إلى منتهاها، يقول ابنُ أبي الإصــبع:"سُــمِّى هذا النوع إيغالاً؛ لأن المتكلم أو الشــاعر أوغل في الفكر حتى اســتخرج سجعة أو قافية؛ تفيد معنى زائداً على معنى الكلام. وأصله من الإيغال في السير وهو السرعة، فإن الإيغال في السـير يدخل السـائر في المكان الذي يقصـده بسـرعة، يقال: أوغل في الأرض الفلانية أي بلغ منتهاها، أو ما قاربه فكأن المتكلم قد تجاوز حد المعنى الذي هو آخذ فيه، وبلغ إلى زيادته عن الحد، كما أن من دخل العريش مثلاً من أرض مصــر فقد دخل مصــر، فإذا أوغل في مصر فوصـل إلى الصـعيد يقال: قد أوغل في مصـر لتجاوزه الحد بالزيادة عليه، فكذلك المتكلم إذا تم معناه ثم تعداه عند الإتيان بســجعة أو قافية بزيادة عليه، فقد أوغل في ذلك المعنى "[2]

وقريب منه قول الزركشــي (المتوفى: ٧٩٤ هـــ) "وَسُــمِّيَ بِهِ لِأَنَّ الْمُتَكَلِّمَ قَدْ تجاوز الْمَعْنَى الَّذِي هُوَ آخِذٌ فِيهِ وَبَلَغَ إِلَى زِيَادَةٍ عَلَى الْحَدِّ، يُقَالُ أَوْغَلَ فِي الْأَرْضِ الْفُلَانِيَّةِ إِذَا بَلَغَ مُنْتَهَاهَا، فَهَكَذَا الْمُتَكَلِّمُ إِذَا تَمَّ مَعْنَاهُ، ثُمَّ تَعَدَّاهُ بِزِيَادَةٍ فِيهِ فَقَدْ أَوْغَلَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ المائدة: ٥٠، فَإِنَّ الْكَلَامَ تَمَّ بِقَوْلِهِ: ﴿ وَمَنْ

(١) الإيضاح في علوم البلاغة٣/ ٢٠٢، المحقق: محمد عبد المنعم خفاجي، الناشر: دار الجيل – بيروت، الطبعة: الثالثة.

(٢) تحرير التحبير ٢٣٢، تقديم وتحقيق: الدكتور حفني محمد شرف الناشر: الجمهورية العربية المتحدة –المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي.

أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ ﴾، ثُمَّ احْتَاجَ إِلَى فَاصِلَةٍ تُنَاسِبُ الْقَرِينَةَ الْأَوْلَى، فَلَمَّا أَتَى بِهَا أَفَادَ مَعْنًى زَائِدًا"[١]

قول الزركشي :" ثُمَّ احْتَاجَ إِلَى فَاصِلَةٍ تُنَاسِبُ الْقَرِينَةَ الْأَوْلَى، فَلَمَّا أَتَى بِهَا أَفَادَ مَعْنًى زَائِدًا" يفهم منه أن جملة الإيغال جاءت لموافقة الفاصلة، ثم لما جاءت أفادت معنى زائدا، كان لا يأتي بدونها، فجملة الإيغال أفادت أمرين؛ المحافظة على الفاصلة من جهة، وبيان أن القوم لو فكروا لعلموا أن الله -تعالى -أحسن حكما، يقول الرازي:" لما كان الموقنون أكثر انتفاعاً به من غيرهم، بل هم المنتفعون به في الحقيقة لا غير كانوا أخص به فأضيف إليهم لذلك."[٢]، بهذا يتبيّن أن هناك ترابطا واضحا بين المعنى اللغوي والاصطلاحي؛ حيث سمي المعنى الاصطلاحي إيغالا؛ لأن المتكلم قد تجاوز حد المعنى، على النحو الذي سبق بيانه.

نشأة المصطلح:

بالبحث في تراث أهل العلم تبيّن لي أنّ قدامة بن جعفر (المتوفى: ٣٣٧ هـ) هو أوّل من أطلق مصطلح " الإيغال" على هذا النوع من الإطناب؛ ففي حديثه عن أنواع القافية ذكر منها الإيغال، وبيّن المقصود منه، واستشهد له؛ حيث قال: " ومن أنواع ائتلاف القافية مع سائر البيت: الإيغال: وهو أن يأتي الشاعر بالمعنى في البيت تاماً من غير أن يكون للقافية فيما ذكره صنع، ثم يأتي بها لحاجة الشعر، في أن يكون شعراً، إليها، فيزيد بمعناها في تجويد ما ذكره في البيت"[٣]

---

(١) البرهان في علوم القرآن ١/ ٩٦، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة: الأولى، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧م الناشر: دار إحياء الكتب العربية.

(٢) أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل ١٠٦، تحقيق: د. عبد الرحمن بن إبراهيم المطرودى، الناشر: دار عالم الكتب المملكة العربية السعودية – الرياض. الطبعة: الأولى، ١٤١٣ هـ، ١٩٩١ م.

(٣) نقد الشعر ١٦٨ تحقيق: الدكتور: محمد عبد المنعم خفاجي، الطبعة الأولى١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨م، الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية.

هذا ولا أعلم أحدا ذكر هذا النوع من الإطناب بهذا الاسم قبل "قدامة"، فلم يرد هذا اللفظ البتة عند أحد من أهل العلم قبله، ولم يعترض على هذا الكلام أحد.

غير أن ابن الأثير ذهب إلى أنّ أبا هلال العسكري هو الذى سبق إليه، ووضع اسمه؛ فبعد أن ذكر بيتي امرئ القيس وزهير، وهما من الشواهد المشهورة فيه، ذكر أن أبا هلال هو من سمّى هذا النوع من الإطناب إيغالا؛ ومما قاله ابن الأثير:" واعلم أن أبا هلال العسكري قد سمى هذين القسمين بعينهما الإيغال، وقال: هو أن يستوفي الشاعر معنى الكلام قبل البلوغ إلى مقطعه، ثم يأتي بالمقطع زيد فيه معنى آخر"[1]

أقول: لو كان من مذهب ابن الأثير أن أحدا غير أبي هلال سبق إليه لقال هذا، وابن الأثير قد جانبه الصواب في نسبة هذا النوع من الإطناب إلى أبي هلال، ولعله لم يقف على ما قاله قدامة حتى يقول هذا؛ إذ ليس هناك سبب يجعله ينسب قولا لأحد من أهل العلم، وغيره قد سبق إليه.

وقد استدرك الأستاذان: أحمد الحوفي وبدوي طبانة على ابن الأثير هذا الصنيع؛ فقالا في تحقيقهما كتابه " المثل السائر ":" وقد وهم ابن الأثير هنا أيضا في نسبة هذا الفن "الإيغال" إلى أبي هلال العسكري. والحقيقة أن هذا الفن من مستخرجات قدامة، وهو واضع لقبه، وجعله من أنواع ائتلاف القافية مع سائر معنى البيت " [2]

تعقيب على ما سبق:

مما يلفت النظر أن ما جاء عند ابن الأثير منسوبا لأبي هلال يختلف عما ورد عند قدامة؛ فتعريف أبي هلال فيه زيادة ليست موجودة عند قدامة؛ فقدامة تعرض له في الشعر

---

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ٣/ ٢٠٩، المحقق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة ، الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة ـ القاهرة .

(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ٣/ ٢٠٩.

دون النثر كما هو بيّن في تعريفه، وعند أبي هلال التعريف يشمل الكلام شعرا ونثرا، حيث عرفه بقوله:" هو أن يستوفى معنى الكلام قبل البلوغ إلى مقطعه؛ ثم يأتي بالمقطع فيزيد معنى آخر يزيد به وضوحا وشرحا وتوكيدا وحسنا "[١]، فهو عند الثاني أعم من الأول؛ حيث جعله في الكلام كله، شعره ونثره.

إنما أقول هذا لأنه قد يُفهم من تعريف قدامة أنه ينفي وجوده في النثر ويجعله في الشعر خاصة، وليس كذلك؛ لأن تعريفه قد جاء على هذا النحو لمواءمته موضوع الكتاب؛ وهو "نقد الشعر"، فليس لزاما تعريفه على الإطلاق، وتعريف العسكري جاء موافقا لموضوع كتاب" الصناعتين" الشعر والنثر، فجاء تعريفه مناسبا لموضوع كتابه، فالحال عند قدامة الشعر فقط، وعند العسكري الشعر والنثر.

أوّل من استخدم الإيغال في شعره:

لعله من الصعب أن نرد الفنون البلاغية إلى أوّل من تكلم بها، فلا نستطيع أن نجزم مَنْ من العرب أول استخدم الإيغال أو التذييل؟ ..... أو غير ذلك من أساليب البلاغة.

وقد أردت أن أتتبع تلك المسألة في الإيغال، فوجدت أهل العلم قد ذكروا أن امرأ القيس هو أول من سبق إلى ذلك النوع من الإطناب؛ قال ابن رشيق في سياق حديثه عن الإيغال:" وليس بين الناس اختلاف أن امرأ القيس أول من ابتكر هذا المعنى بقوله يصف الفرس:

إِذا مَا جَرَى شَأْوَيْنِ وابْتَلَّ عِطْفُه، تقولُ: هَزِيزُ الريحِ مَرَّتْ بأَثْأَبِ [٢]

---

(١) الصناعتين ٣٨٠.

(٢) يقول الدكتور: عبد العزيز عتيق:"فالمعنى هنا أن الفرس إذا أجرى شوطين وابتلّ جانبه من العرق سمعت له صوتا وخفقا كخفق الريح إذا مرّت بشجر الأثأب. فالشاعر بالغ في وصف الفرس وجعله على هذه الصفة بعد أن يجري شوطين ويبتل عطفه بالعرق، وقد تم المعنى بقوله «مرت» ثم زاد إيغالا في صفته بذكر الأثأب الذي يكون للريح في أضعاف أغصانه حفيف عظيم وشدة صوت. وعلى هذا فإذا كانت لفظة =

فبالغ في صفته، وجعله على هذه الصفة بعد أن يجري شأوين ويبتل عطفه بالعرق، ثم زاد إيغالاً في صفته بذكر الأثأب، وهو شجر للريح في أضعاف أغصانه حفيف عظيم وشدة صوتٍ، ومثل ذلك قوله:

كَأَنَّ عُيُونَ الْوَحْشِ حَوْلَ خِبَائِنَا وَأَرْحُلِنَا الْجَزْعُ الَّذِي لَمْ يُثَقَّبِ

فقوله " لَمْ يُثَقَّبِ " إيغال في التشبيه، وأتبعه زهير فقال:

كَأَنَّ فُتَاتَ العِهْنِ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ نَزَلْنَ بِهِ حَبُّ الفَنَا لَمْ يُحَطَّمِ [1]

فأوغل في التشبيه إيغالاً بتشبيهه ما يتناثر من فتات الأرجوان بحب الفنا الذي لم يحطم؛ لأنه أحمر الظاهر أبيض الباطن، فإذا لم يحطم لم يظهر فيه بياض البتة، وكان خالص الحمرة، وتبعهما الأعشى فقال يصف امرأة:"

غَرَّاءُ فَرْعَاءُ مَصْقُولُ عوارِضُهَا تَمْشِي الهُوَيْنَى كَمَا يَمْشِي الوَجِي الوَحِلُ [2]

فأوغل بقوله " الوحل " بعد أن قال " الوجى "[3] كلام ابن رشيق بيّن في أن امرأ القيس

«أثأب» قد استدعتها القافية ليكون الكلام شعرا، فإنها في الوقت ذاته أفادت معنى زائدا، وهو المبالغة في شدة حفيف الفرس بتشبيهه بهزيز الريح المنبعث من اصطدامها بأغصان هذا الشجر عند مرورها من خلاله. علم البديع ١١٤ الناشر: دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان.

(١) العهن: هو الصوف الأحمر، والفنا: حب تنبته الأرض أحمر، فقد أتى على الوصف قبل القافية، لكن حب الفنا إذا كسر كان مكسره غير أحمر، فاستظهر في القافية لما أن جاء بها، بأن قال: لم يحطم، فكأنه وكّد التشبيه بإيغاله في المعنى. نقد الشعر٦٣.

(٢) الغراء: البيضاء الواسعة الجبين. والفرعاء: الطويلة الفرع أي: الشعر. والعوارض: الرباعيات والأنياب. والوجي بكسر الجيم: الذي يشتكي حافره ولم يحف. والوحل بكسر الحاء المهملة: الذي يتوحل في الطين. خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ٨/ ٣٩٤.

(٣) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ٢/ ٥٨، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: دار الجيل، الطبعة: الخامسة، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م.

أول من ابتكر الإيغال في شعره، وتبعه زهير، ثم تبعهما الأعشى، وقد ساق الرجل كلامه على وجه يُفهم منه أن هذا أمر مسلمٌ به، أجمع عليه أهل العلم، ولا خلاف فيه، ولم أجد أحدا يدفع كلام صاحب العمدة، أو يقول غيره.

وقد ذكر الرافعي كلام ابن رشيق السابق ثم زاد عليه "وبهذا تستدل على أن الشعراء كانوا يهتدون في الصنعة بامرئ القيس، فكان شعره لهم أشبه بكتب البلاغة للمتأخرين؛ وما من نوع من الأنواع التي سلفت إلا وقد اتبعوه فيها وانسحبوا على أثره."[١]

وعلى هذا النهج جاء قول الدكتور عبد العزيز عتيق، ولكن لم ينسبه إلى ابن رشيق؛ حيث جاء عنده:" ويقال: إن امرأ القيس أول من ابتكر هذا المعنى، أي الإيغال، وذلك بقوله يصف الفرس: ..." [٢]، وذكر البيت.

أقول: إذا كان امرؤ القيس أول من ابتكر هذا النوع من الإطناب، وتبعه زهير والأعشى، وسار الشعراء بعد ذلك على نهجهم، فلا إشكال في ذلك، ولهم فضل السبق، وكل من جاء بعدهم سار على دربهم، فمنهم من أجاد ومنهم دون ذلك.

ولكن إذا نظرت إلي هذا النوع من الإطناب عند المتقدمين والمتأخرين، وقارنت ذلك بما جاء في الذكر الحكيم، والبيان النبوي وجدت له شأنا آخر، ولن تجد وجها للمقارنة، ورأيت هذا الذي كنت معجبا به يتصاغر أمامه، وينزل من عليائه؛ أشار لهذا ابن أبي الإصبع؛ فبعد أن ذكر شواهد للإيغال من شعر امرئ القيس وغيره، وبيّن بلاغة الإيغال فيها، أخذ يتحدث عن بلاغته في كتاب الله -تعالى -، فقال:" وإذا وصلت إلى بلاغة القرآن العزيز،

(١) تاريخ آداب العرب ٣٤٠، الناشر: دار الكتاب العربي.

(٢) علم البديع ١١٤.

وصلت إلى الغاية القصوى، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴾ ..."[1]، ثم بين سر بلاغته في تلك الآية وغيرها، وسيأتي بيان هذا في موضعه من البحث .

الدراسات السابقة:

من المعلوم أن هناك دراسات كثيرة في الإطناب عامة، أما إفراد فن الإيغال بدراسة مستقلة فلم أجد إلا دراستين موجزتين فيه، لم يقفا على كثير من المسائل التي تمت معالجتها في هذا البحث.

الدراسة الأولى جاءت بعنوان:" التتميم والإيغال وأثرهما في معاني القرآن الكريم"؛ للأستاذين عبد الرحمن عبد الله سرور الجرمان، والأستاذ: حامد محمد حمود المجرب؛ وكلاهما أستاذ بقسم الدراسات الإسلامية، كلية التربية الأساسية، الهيئة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب دولة الكويت.

وقد جاء البحث في ثلاثة وثلاثين صفحة، جاء فيها تعريف الإيغال والتتميم، والفرق بينهما، ثم التطبيق على بعض آيات الذكر الحكيم، بطريقة موجزة جدا، هي أقرب إلى درس التفسير منه إلى الدرس البلاغي.

الدراسة الثانية:" أسلوب الإيغال في آيات القرآن الكريم (دراسة نظرية ونماذج تطبيقية على سورة البقرة)"؛ وهي بحث منشور في حولية كلية أصول الدين والدعوة الإسلامية بطنطا، للدكتور/ كامل هلال السيد الخالع، المدرس بقسم التفسير في كلية أصول الدين بطنطا.

جاءت تلك الدراسة -التي يغلب عليها طابع أهل التفسير-في عدة مطالب؛ منها تعريف الإيغال، الفرق بينه وبين بعض أنواع الإطناب، تطبيق الإيغال على بعض آيات سورة البقرة.

---

(١) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن ٢٣٣.

وفي الدراسة السابقة تناول الباحث كثيرا من الآيات في سورة البقرة تحت الإيغال، وهي ليست منه؛ فالباحث من مذهبه أن كل جملة جاءت تامة، فما بعدها يكون إيغالا.

والبحثان السابقان فيهما جهد لا ينكر، ولكنهما يفتقران إلى شيء من الدقة؛ فالدرس البلاغي له ما يميزه عن غيره؛ فمثلا لم يتعرض أحد منهم إلى نشأة هذا المصطلح، ولا كيف نميّزُ بين الإيغال وغيره من أنواع الإطناب الأخرى؟، ومناقشة المانعين لوجود الإيغال في الذكر الحكيم ليس فيها شيء سوى النقل دون زيادة، ولم يتعرض أحد منهم للإيغال في البيان النبوي ...إلى غير ذلك من الأمور التي يقتضيها الدرس البلاغي، وهو ما يسعى الباحث لمعالجته في هذه الدراسة.

المبحث الأول:

الخلط بين الإيغال وغيره من أنواع الإطناب

من المعلوم أن صور الإطناب في اللغة العربية كثيرة ومتنوعة؛ فمنها ما يأتي في حشو الكلام، ومنها ما يكون في الفاصلة، ومنها ما يكون فضلة، أو جملة ...إلخ مما يعكس ثراء العربية وتنوع أساليبها، ومن صور الإطناب ما قد تتباعد في دلالتها؛ بمعنى لا تشابك بينها وبين غيرها من صور الإطناب الأخرى، فالأمر فيها هيّن، وإدراكها والوقوف على سرها لا يحتاج كبير عناء، ومنها ما تتشابه دلالته مع غيرها، فيحتاج في إدراكها وبيان أسرارها مزيدا من التأمل، حتى لا يقع الخلط بين نوع وآخر، أو الاستشهاد له بما لا يندرج تحته.

إنما أقول هذا لأني وجدت كثيرا من أهل العلم يخلط بين أنواع الإطناب، فيأتي بشواهد الإيغال ويجعلها لغيره من أنواع الإطناب الأخرى، من أجل هذا أردت تحرير المصطلح، وتخليصه من هذا التشابك الذي أصاب شواهده، حتى أصل إلى أمر مهم في تلك المسألة؛ هل من الممكن إجراء الشاهد البلاغي لأكثر من نوع من الإطناب؟ ولا مشاحة في الاصطلاح. أقول: إن صح هذا فرضا فإنه يكشف عن شيء غاية في الدقة؛ وهو أن حدّ أي فنٍ من هذه الفنون يجب أن يكون جامعا مانعا، فلا يشاركه فيه غيره، وشواهده خاصة به، ومصطلحه الذي تعارف عليه أهل العلم يجب أن يكون مستمدا من دلالة تلك الشواهد، من أجل هذا سبق هذا الجزءَ من الدراسة بيانُ العلاقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي؛ حتى نضع الشواهد التي تتفق ودلالة المصطلح.

وفيما يأتي بيان هذا الخلط الذي أصاب هذا النوع من الإطناب، من خلال ما ذكره أهل العلم في الشواهد التي هي من الإيغال، وأجراها أحدهم لغيره، أو جعلها صالحة للنوعين معا.

أوّلا: الفرق بين الإيغال والتتميم:

في حديث البلاغيين عن هذين النوعين من الإطناب وجدت خلطا ظاهرا بينهما؛ فمنهم من يجعل من شواهد الإيغال شاهدا للتتميم، وما جاء شاهدا للتتميم يجعله للإيغال؛ مما يعني أن مضمون الأمرين عند بعضهم واحد، فلا فرق عنده بين هذ وذاك فيجعل من شواهد أحدهما شاهدا للآخر.

هذا ويجدر بي أوّلا أن أذكر تعريف التتميم؛ لنقف على الفرق بينه وبين الإيغال، وهل وصل التشابك بينهما تلك الدرجة التي سوغت إطلاق شواهد أحدهما على الآخر؟

أول من ذكر التتميم " قدامة"؛ حيث ورد عنده "التتميم وهو أن يذكر الشاعر المعنى فلا يدع من الأحوال التي تتم بها صحته وتكمل معها جودته شيئًا إلا أتى به.

مثل قول نافع بن خليفة الغنوي:

رِجَالٌ إِذَا لَمْ يُقْبَلِ الحَقُّ مِنْهُم وَيُعْطَوْهُ عَاذُوا بِالسُّيُوْفِ القَوَاضِبِ

فإنما تمت جودة المعنى بقوله: ويعطوه، وإلا كان المعنى منقوص الصحة، ومثل قول عمير بن الأيهم التغلبي:

بها نلنَا القرائبَ من سوَانا وأحرزنَا القرائبَ أن تنالا

فالذي أكمل جودة هذا البيت قوله: وأحرزنا القرائب أن تنالا، مع أنهم القرائب من سواهم. ومثله قول طرفة:

فَسَقَى دِيارَكِ، غَيْرَ مُفْسِدِها، صَوْبُ الرَّبِيعِ ودِيمةٌ تَهْمِي

فقوله: غير مفسدها، إتمام لجودة ما قاله، لأنه لو لم يقل: غير مفسدها، لعيب، كما عيب ذو الرمة في قوله:

ألا يا اسْلَمِى يا دارَ ميٍّ عَلَى البلَى ولا زالَ منهلاً بجرعائكِ القطرُ

فإن الذي عابه في هذا القول، إنما هو بأن نسب قوله هذا إلى أن فيه إفساداً للدار التي

دعا لها، وهو أن تغرق بكثرة المطر. "[1]

تعريف قدامة السابق بيّن في أن التتميم يأتي إلى المعنى الناقص فيتمه، كما جاء في بيتي الغنوي والتغلبي السابق ذكرهما، أو يأتي في حشو البيت يدفع معنى غير مراد؛ كما في قول طرفة السابق، وهو الذي اصطلح البلاغيون على تسميته ب-" التكميل" أو "الاحتراس"، و التتميم كما جاء في " التعريفات " للجرجاني: هو أن يأتي في كلام لا يوهم خلاف المقصود بفضلة لنكتة؛ كالمبالغة، نحو قوله تعالى: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ الإنسان: ٨ ، أي: ويطعمونه على حبه والاحتياج إليه. [2]

تعريف الجرجاني السابق بيّنٌ في كشف مضمون هذا النوع من الإطناب؛ فهي فضلةٌ يؤتى بها في كلام لا يوهم خلاف المقصود لنكتة يقتضيها السياق؛ كما في الآية السابقة؛ فقوله تعالى: ﴿ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ تتميم أفاد أنهم يطعمون وهم أحوج الناس إلى الطعام، وهذا كمال المدح؛ فهم يعطون عن حاجة، فنفوسهم تتوق إلى شيء من الطعام، ومع هذا يؤثرون على أنفسهم وبهم خصاصة، فالتتميم يؤسس معنى جديدا يذهب بذهابه.

من خلال تعريف الجرجاني للتتميم يتبيّن أن قدامة قد أدخل في شواهده ما ليسه منه؛ فقول طرفة السابق:" غَيْرَ مُفْسِدِها" تكميل أو احتراس، وليس تتميما؛ حيث إن التتميم يأتي على الناقص فيتمه، والتكميل ليس كذلك؛ فالمعنى فيه تام، ولكن قد يُفهم منه غير المراد، فيأتي التكميل يدفع هذا الوهم، يقول ابن أبي الإصبع:" وما وهم فيه المؤلفون في الموضع أنهم خلطوا التكميل بالتتميم، إذ ساقوا في باب التتميم شواهد التكميل، لأن كلا منهم ذكر

(١) نقد الشعر٤٩.

(٢) كتاب التعريفات ٥١ .

قول عوف بن محلم السعدي:

إنّ الثّمانِينَ وَبُلّغْتَها قَدْ أَحْوَجَتْ سَمْعِي إِلَى تَرْجُمانْ

من شواهد التتميم، ومعنى البيت تام بدون لفظة "وَبُلّغْتَها" وإذا لم يكن المعنى ناقصًا فكيف يسمى هذا تتميمًا؟!!، وإنما هو تكميل، وما غلطهم إلا من كونهم لم يفرقوا بين تتميم الألفاظ وتتميم المعاني، فلو سموا مثل هذا تتميمًا للوزن لكان قريبًا، وإنما ساقوه على أنه من تتميم المعاني البديعة"[١]

من خلال ما سبق يتبيّن أن هناك فرقا جليا بين هذين النوعين من الإطناب؛ فالإيغال يأتي بعد تمام المعنى لنكتة، ولو حذفت من الكلام ذهبت تلك النكتة بذهابه، ولا يقدح هذا في تمام المعنى، بخلاف التتميم فإنه يأتي إلى الناقص فيتمه، وسيأتي التفرقة بينهما بعد أن أذكر كيف خلط أهل العلم بين شواهدهما.

هذا وأول من خلط بين شواهد " الإيغال" و"التتميم" أسامة بن منقذ (المتوفى: ٥٨٤ هـ)؛ ففي حديثه عن "التتميم" عرفه بقوله: " اعلم أن التتميم هو أن يذكر الشاعر معنى، ولا يغادر شيئًا يتم به إلا أتى به، فيتكامل له الحسن والإحسان، ويبقى البيت ناقص الكلام، فيحتاج إلى أن يتمه بكلمة توافق ما في البيت من تطبيق أو تجنيس أو غير ذلك."[٢] ..."

وأنشد قول الأعشى:

أَلَستَ مُنتَهِيًا عَن نَحتِ أَثلَتِنا وَلَستَ ضائِرَها ما أَطَّتِ الإِبِلُ

---

(١) تحرير التحبير ٣٥٩.

(٢) البديع في نقد الشعر٥٢، تحقيق: الدكتور أحمد أحمد بدوي، الدكتور حامد عبد المجيد، مراجعة: الأستاذ إبراهيم مصطفى، الناشر: الجمهورية العربية المتحدة - وزارة الثقافة والإرشاد القومي - الإقليم الجنوبي - الإدارة العامة للثقافة.

كَنَاطِحٍ صَخْرَةً يَوْمًا لِيَفْلِقَهَا فَلَمْ يَضِرْهَا وَأَوْهَى قَرْنَهُ الْوَعِلُ

ومنه قول ذي الرمة:

قِفِ الْعِيسَ فِي أَطْلاَلِ مَيَّةَ فَاسْأَلِ رُسُومًا كَأَخْلاَقِ الرِّدَاءِ الْمُسَلْسَلِ

أَظُنُّ الّذِي يُجْدِي عَلَيْكَ سُؤَالُهَا دُمُوعًا كتَبْذِيرِ الْجُمَانِ الْمُفَصَّلِ

فالمفصل تتميم، وهو في القافية يسمى: تبليغًا وتتبيعا، وفي الحشو يسمى: تتميمًا واحتراسًا.

وأنشدوا لامرئ القيسٍ:

كَأَنَّ عُيُونَ الْوَحْشِ حَوْلَ خِبَائِنَا وأَرْحُلِنَا الْجَزْعُ الّذِي لَمْ يُثَقَّبِ

قول الأعشى: الوعل، وقول امرئ القيس: لم يثقب تتميم وتبليغ، لأن المعنى تمَّ دون هاتين الكلمتين فلما جاء بهما تمم البيت وزاد في التشبيه زيادة بينة. "[1]

تعريف أسامة للتتميم متفق مع تعريف البلاغيين له؛ وإنما الخلاف في أن كل الشواهد السابقة التي استشهد بها هي من شواهد الإيغال، فبيت الأعشى "تم المثل بقوله: وأوهى قرنه، فلما احتاج إلى القافية قال " الوعل " قال: قلت: وكيف صار الوعل مفضلا على كل ما ينطح؟ قال: لأنه ينحط من قمة الجبل على قرنه فلا يضيره"[2]، هذا كلام قدامة وابن رشيق وابن سنان الخفاجي وأبي هلال وغيرهم في استشهادهم بهذا البيت على الإيغال.

وبيتا ذي الرمة من الإيغال عند البلاغيين؛ فإن المعنى قد تم بتشبيه الرسوم "بالرداء" ،

(١) البديع في نقد الشعر٥٢.

(٢) ينظر: نقد الشعر٦٤، الصناعتين ٣٨٠، العمدة في محاسن الشعر وآدابه٢/ ٥٧، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: دار الجيل، الطبعة: الخامسة، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م، سر الفصاحة، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ_١٩٨٢م.

ثم قال:" المسلسل"؛ فزاد شيئا بها؛ أي الرداء المقطع البالي، وفي البيت الثاني تمَّ المعنى عند قوله:" الْجُمَانِ"، ثم زاد " الْمُفَصَّلِ" أي اللؤلؤ المنظوم؛ فأفادت معنى زائدا.

و في بيت امرئ القيس انقضى كلامه عند قوله: " الجزع " ثم أفاد بالقافية معنى زائداً؛ إذ قال: " لم يثقب " لأن عيون البقر غير مثقبة، يقول المرحوم الأستاذ الدكتور/ محمد عبد المنعم خفاجي:" الجزع بفتح الجيم: الخرز اليماني الذي فيه سواد وبياض وهو عقيق فهي دوائر البياض والسواد شبه به عيون الوحش بعد موتها، وأتى بقوله: "لم يثقب" تحقيقا للتشبيه؛ لأنه إذا كان غير مثقوب كان أشبه بالعيون، قال الأصمعي: الظبي والبقرة إذا كانا حيين فعيونهما كلها سواد فإذا ماتا بدأ بياضها، وإنما شبهها بالجزع وفيه سواد وبياض بعد ما مات والمراد كثر الصيد، يعني مما أكلنا كثرت العيون عندنا"[١]

بهذا يتبين أن شواهد التتميم عند أسامة هي شواهد الإيغال المتعارف عليها عند أهل العلم؛ مما يعنى أن هذا النوع من الإطناب يسميه تتميما.

ويمكن مناقشة ما ذهب إليه أسامة بما يأتي:

أولا: مصطلح " الإيغال " لم يرد عنده البتة؛ ولا أدرى لِمَ لم يذكره ؟! وهو لفظ شائع عند أهل العلم، وقد ورد عند "قدامة" كما سبق ذكره، فهل لم يقف هو على تلك التسمية؟ أم أنه يرى أن تسمية هذا النوع من الإطناب بالتتميم أولى؟ ، وإن كنت أرى أن التعليل الثاني ينسجم مع ما ذهب إليه؛ حيث إن "أسامة" قد نقل عن "قدامة" في مواضع كثيرة من كتابه" نقد الشعر"؛ مما يعني وقوفه على ما قاله "قدامة"، ففي حديث الثاني عن مصطلح " الإغراب " أخذه بفصه ونصه من لفظ "قدامة"، وصرح بذلك، مما يعني أنه يأخذ عنه ما كان موافقا له، ويدع ما لا يرضى تسميته، وكان الأولى به أن يبيّن لنا لِمَ عدل عن تسمية السابقين إلى ما ذهب إليه ؟

(١) الإيضاح في علوم البلاغة٣/ ٢٠٣، المحقق: محمد عبد المنعم خفاجي، الناشر: دار الجيل – بيروت، الطبعة: الثالثة.

ثانيا: الجزء الأول من تعريفه للتتميم يتفق إلى حد كبير مع مضمون تعريف البلاغيين للإيغال، والنكتة التي ذكرها للتتميم تتفق مع نكتة الإيغال؛ حيث قال: " يذكر الشاعر معنى، ولا يغادر شيئًا يتم به إلا أتى به، فيتكامل له الحسن والإحسان" فهل ترى فرقا بين دلالة هذا الكلام ومضمون الإيغال؟ والشواهد التي أوردها تؤكد هذا.

أما الجزء الثاني من كلامه فهو أقرب رحما، وأعلق نسبا بما قاله البلاغيون في التتميم؛ فقوله:" ويبقى البيت ناقص الكلام، فيحتاج إلى أن يتمه بكلمة توافق ما في البيت من تطبيق أو تجنيس أو غير ذلك" والتتميم يأتي على الناقص فيتمه على النحو الذي سبق بيانه.

أخلص من هذا إلى أن تعريفه للتتميم جاء مزيجا من تعريف الإيغال والتتميم، وماذا عليه لو جعل هذا غير ذاك؟!.

وممن جعل شواهد الإيغال من قبيل شواهد التتميم التيفاشي (المتوفى: ٦٥١ هـ)؛ في حديثه عن تشبيه حمرة عين الحُمُر بعين الديك في قول عدى بن زيد :

ثلاثةَ أَحْوال وَشَهْرًا مُحَرَّمًا، تُضِيءُ كعَينِ العُتْرُفان المُجارِبِ

"قال الجاحظ: سماه بالمجاوب كما سماه بالعترفان؛ قال المصنف: وأنا أرى أنه لميسمه بالمجاوب وإنما وصفه بذلك، لأن عين الديك المجاوب أشد حمرةً وأحدُّ نظراً من غير المجاوب، فيكون مبالغة في وصف حمرة العين وبصيصها، ويكون لقوله " المجاوب " في البيت موقع حسن من البديع يسمى: " التتميم " كقول امرئ القيس:

كأَنَّ عُيُونَ الوَحْشِ حَوْلَ خُبَائِنَا وَأَرْحُلِنَا الجزَّعُ الَّذِي لم يِثَقَّب

فقوله " لم يثقب " أتم في التشبيه. [1]"المجاوب" في قول عدي بن زيد تتميم عند

(١) سرور النفس بمدارك الحواس الخمس ١١٥، المؤلف: أبو العباس أحمد بن يوسف التيفاشي ، المحقق: إحسان عباس ، الناشر: المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، الطبعة: ١، ١٩٨٠.

التيفاشي، ونظيره قول امرئ القيس: " لم يثقب "، فهي تتميم أيضا عنده.

وعلى النهج السابق في الخلط بين هذين النوعين من الإطناب، وجعل شواهد الإيغال تتميما، جاء صنيع صاحب معاهد التنصيص؛ فبعد أن ذكر بيت امريء القيس السابق ، علق عليه قائلا:" وَقد اشْتَمَل هَذَا الْبَيْت على نوع من أَنْوَاع البديع، يُسمى التَّبْلِيغ، والتتميم، وَيُسمى الإيغال أَيْضا؛ وَهُوَ أَن يتم قَول الشَّاعِر دون مقطع الْبَيْت ويبلغ بِهِ القافية فَيَأْتِي بِمَا يتمم بِهِ الْمَعْنى وَيزِيد فِي فَائِدَة الْكَلَام، لِأَن للقافية محلا من الأسماع والخواطر فاعتناء الشَّاعِر بهَا آكِد وَلَا شَيْء أقبح من بنائها على فضول الْكَلَام الَّذِي لَا يُفِيد"[1].

الشاهد السابق جعله العباسي صاحب "معاهد التنصيص"تبليغا، وتتميما، وإيغالا، وجعل بيتي ذي الرمة السابق ذكرهما من هذا القبيل أيضا، فلا مشكلة عنده أن يسمى شاهد الإيغال تتميما .....

ومن هؤلاء الألوسي (المتوفى: ١٢٧٠ هـ) رحمه الله -؛ ففي سياق حديثه عن قول الله - تعالى -﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴾ النمل: ٨٠ قال" وتقييد النفي بقوله تعالى:﴿ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴾ لتتميم وتأكيد النفي؛ فإنهم مع صممهم عن الدعاء إلى الحق معرضون عن الداعي، مولون على أدبارهم، ولا ريب في أن الأصم لا يسمع الدعاء مع كون الداعي بمقابلة صماخه قريبا منه، فكيف إذا كان خلفه بعيدا منه، ومثله في التتميم قول امرئ القيس:[2]

حَمَلْتُ رُدَيْنِيّاً كَأَن سِنَانَهُ ... سَنَا لَهبٍ لم يَتَّصِلْ بدْخانِ

(١) معاهد التنصيص على شواهد التلخيص ١٣٥٧.

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ١٠/ ٢٣١، المحقق: علي عبد الباري عطية، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ .

الرجل جعل الآية من قبيل التتميم، وجعل نظيرها بيت امرئ القيس، وهما شاهدان من شواهد الإيغال؛ ففي الآية تمّ المعنى ﴿وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ﴾، ثم جاءت جملة ﴿إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ إيغالا؛ لتأكيد إعراضهم، والمبالغة في نفي السماع عنهم، وسأبين هذا بالتفصيل في موضعه من البحث -إن شاء الله -تعالى -، وفي بيت امرئ القيس شبه سنا رمحه باللهب، ولكن الرجل لم يكتف بهذا فجاء بجملة الإيغال" لم يَتَّصِلْ بدُخانِ" لتأكيد وتحقيق التشبيه، يقول ابن أبي الإصبع:" فقوله سنا لهب، ليس فيه قوة للتشبيه لما كان مطلقا، فلما قيده بقوله لم يتصل بدخان، كان موغلا في التشبيه لإكماله بما ذكره من التقييد فحصل الإيغال بقوله لم يتصل بدخان وتمت به المبالغة وجاء على صفة الإعجاب وحاز الطرافة مع حسن التأليف."(١)

ومنهم الشيخ محمود بن عبد الرحيم صافي (المتوفى: ١٣٧٦ هـ) صاحب "الجدول في إعراب القرآن "؛ حيث ورد عنده" التتميم: في قوله تعالى :﴿إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾تقييد النفي لتتميم التشبيه وتأكيد النفي، فإنهم- مع صممهم عن الدعاء إلى الحق- معرضون عن الداعي، مولون على أدبارهم ولا ريب في أن الأصم لا يسمع الدعاء مع كون الداعي بمقابلة صماخه، قريبا منه، فكيف إذا كان خلفه أو بعيدا منه."(٢)

وقال في موضع آخر:" التتميم: في قوله تعالى:﴿إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ لقمان: ١٦ والمعنى أنه تمم خفاء الهنة أو الخطيئة في نفسها، بخفاء مكانها من الصخرة،

(١) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز٣/ ٧١، الناشر: المكتبة العنصرية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ.

(٢) الجدول في إعراب القرآن الكريم ٢٠/ ٢٠٩، الناشر: دار الرشيد، دمشق – مؤسسة الإيمان، بيروت، الطبعة: الرابعة، ١٤١٨ هـ .

والأخفى من الصخرة، كأن تكون في صخرة مستقرة في أغوار الأرض السحيقة، أو في الأعالي من أجواز الفضاء، ومنه في الشعر قول الخنساء:

وَإِنَّ صَـــخْـراً لَـتَـأتَـمّ الـهُـدَاةُ بِـهِ كَـأَنَّـهُ عَـلَـمٌ فِـي رَأسِـــهِ نـارُ

فقولها: "في رأســه نار" تتميم جميل لا بد منه لتجســيد الظهور والشــهرة للســارين والغادين."[١]

بيت الخنســاء من أشــهر شــواهد الإيغال عند أهل العلم، يقول العلوي:" فقولها في «رأســه نار»، من الإيغال الحســن لأنها لم تكتف بكونه جبلا عاليا مشــهورا، بل زادت لكثرة إيغالها في مدحه وشــهرته بقولها «في رأســه نار» لما فيه من زيادة الظهور والانكشــاف، لأن الجبل ظاهر فكيف به إذا كان في رأســه نار، والنار ظاهرة فكيف حالها إذا كانت في رأس جبل...."[٢]، ولكنه عند الألوسي تتميم جميل على حد قوله.

هذا والذين خلطوا بين شــواهد الإيغال والتتميم كثيرون، منهم أبو حيان؛ صــاحب "البحر المحيط"، وأحمد بن المنير السكندري في "الانتصاف " ...ولم أذكر أقوالهم حيث إنها مأخوذة مما سبق، ولا جديد فيها يذكر ...[٣]

تعقيب على ما سبق:

من خلال ما ســبق يتبين لنا أن خلطا واضــحا قد وقع بين شــواهد الإيغال والتتميم، ولعل هذا يعكس التشــابك بين هذين النوعين من الإطناب، يقول ابن رشــيق:" وليس بين

(١) الجدول في إعراب القرآن الكريم ٢١/ ٨٦.

(٢) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز٣/ ٧١، الناشر: المكتبة العنصرية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ.

(٣) ينظر: البحر المحيط١/ ١٣٠، الانتصاف ١/ ٧٠.

الإيغال والتتميم كبير فرق؛ إلا أن هذا في القافية لا يعدوها، وذلك في حشو البيت."[1]

أقول: إذا كان هذان النوعان من الإطناب قد تشابكا إلى تلك الدرجة، التي سوغت إطلاق شواهد أحدهما على الآخر، إلا أن بينهما -عند التأمل -فروقا تميز شواهد هذا عن ذاك، فهما كالأشقاء الذين خرجوا من رحم واحد، ولا يستطيع أحد أن يقول إنهما شخص واحد، إن مما يميز الإيغال أمرين؛ الأول: أنه يأتي في نهاية البيت، أو الفاصلة القرآنية، والتتميم يأتي في نهاية الكلام ووسطه، وإنما يأتي الإشكال إذا جاء التتميم في نهاية الكلام، ففي تلك الصورة من السهل أن يلتبس الأمر وتدخل شواهد الإيغال في التتميم.

الأمر الثاني: يتمثل في أن الإيغال يأتي بعد تمام المعنى، وهذا الأمر لا تجده في التتميم؛ فهو يأتي على الناقص فيتمه، سواء جاء في وسط الكلام أم آخره، يقول ابن حجة:" والفرق بين الإيغال والتتميم، أن التتميم يأتي إلى المحتاج فيتممه، كقول الشاعر وقد تقدم:

رِجَالٌ إِذَا لَمْ يُقْبَلِ الحَقُّ مِنْهُم وَيُعْطَوْهُ عَاذُوا بِالسُّيُوْفِ القَوَاضِبِ

فإن المعنى بدون قوله: ويعطوه ناقص، والإيغال لا يرد إلا على المعنى التام، فيزيده كمالًا ويفيد فيه معنى زائدًا"[2]

وعليه فدلالة المصطلح في كلٍ واضحة، فالتمام لا يكون إلا بعد نقص، والإيغال يصل المتكلم إلى معنى يحسن السكوت عليه، ولكن تسنح له نكتة تفيد كلامه، فيوغل في الوصول إليها، وعليه يمكن أن أقول: إن كلا من الأسلوبين له رونقه وأثره على الكلام، غير أن حاجة الكلام إلى التتميم أكثر من حاجته إلى الإيغال، وإن كان الكل مما يحتاج إليه السياق.

---

(١) العمدة ٢/ ٦٠.

(٢) خزانة الأدب وغاية الأرب ٢/ ٢٨.

هذا وقد أفدت فيما سبق مما ذكره ابن أبي الإصبع في التفريق بينهما، حيث قال: "والفرق بين التتميم والإيغال من ثلاثة أوجه: أحدهما أن التتميم لا يرد إلا على كلام ناقص شيئًا ما، إما حسن معنى أو أدب، أو ما أشبه ذلك، كالبيت الذي تقدم، فإن المعنى بدون قوله: ويعطوه ناقص، [١] والإيغال لا يرد إلا على معنى تام من كل وجه.

والثاني: اختصاص الإيغال بالمقاطع دون الحشو مراعاة لاشتقاقه، لأن الموغل في الأرض هو الذي قد بلغ أقصاها أو قارب بلوغه، فلما اختص الإيغال بالطرف لم يبق للتتميم إلا الحشو.

والثالث: أن الإيغال لابد وأن يتضمن معنى من معاني البديع، والتتميم قد يتضمن وقد لا يتضمن، وأكثر ما يتضمن الإيغال التشبيه، والمبالغة، حتى لو قيل: إنه لا يتعدى هذين الضربين لكان حقًا، والتتميم يتضمن طوراً المبالغة، ويتضمن حينًا الاحتياط، ويأتي مرة غير متضمن شيئًا سوى تتميم ذلك المعنى؛ والله أعلم."[٢]

وما قاله ابن أبي الإصبع في التفرقة بين هذين النوعين من الإطناب من أوفى ما قيل في هذا الجانب.

(١) يقصد به قول الشاعر: رِجَالٌ إِذَا لَمْ يُقْبَلِ الحَقُّ مِنْهُم ... وَيُعْطَوْهُ عَاذُوا بِالسُّيُوْفِ القَوَاضِبِ

(٢) تحرير التحبير ٢٤١.

ثانيا: الفرق بين الإيغال والتذييل.

بداية أُحب أن أُنبه إلى أمر مهم؛ هو أن التشـابك بين الإيغال وغيره من أنواع الإطناب، لم يصـل ما وصـل إليه في التتميم؛ فلقد رأينا كثيرا من أهل العلم أطلق شـواهد التتميم على الإيغال على النحو الذي سـبق بيانه، أما الأنواع الأخرى -وإن كانت بحاجة للتفرقة بينها - فلم أجد أحدا أجرى شـواهد أحدهما على الآخر، وإنما تحدثوا عن الفرق بينها؛ لإبراز ما يتميز به هذا عن ذاك، وأي السياقات يناسبها أحد هذه الأنواع.

وقد عرف أهل العلم التذييل بأنه تعقيب الجملة بجملة أخرى تشـتمل على معناها توكيداً لمنطوقها، أو لمفهومها[1]، والتذييل -كما هو معلوم -ضربان:

الأول: ما يجري مجرى المثل؛ ومنه قوله -تعالى -:﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ الإسـراء: ٨١ ، فقوله :﴿ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ تذييل مؤكد لمنطوق الجملة الأولى، ويصح أن يجري مجرى المثل.

ومثاله من الشعر قول الحطيئة:

نَزُورُ فَتَىً يُعْطِي على الْحَمْدِ مالَهُ وَمَنْ يُعْطِ أَثْمَانَ الْمَحَامِدِ يُحْمَدِ

فالشطر الثاني من هذا البيت تذييلٌ يؤكّد منطوق الشطر الأول، وهو مما يصح أنيَجري مجرى المثل.

ومنه قول النابغة:

ولَسْـتَ بِمُسْـتَبْقٍ أخـًا لا تَلُـمُّـهُ على شَـعَثٍ، أيّ الرجالِ المهذَّبُ؟

فقوله:" أي الرجال المهذب" تذييل يصـح أن يجري مجرى المثل، قال عنه ابن أبي

(١) ينظر: الصناعتين٣٧٣، تحرير التحبير ٣٨٧، الطراز٣/ ٦١.

الإصبع:" من أحسن تذييل وقع في شعر."[١]

الثاني: ما لا يصح أن يجرى مجرى المثل؛ ومثاله من القرآن الكريم ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ﴾ سبأ: ١٧، فجملة"﴿ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ﴾ تذييل مؤكد لمنطوق الجملة الأولى، ولا يصح أن يجري مجرى المثل.

ومنه في الشعر قول ابن نُبَاتَة السّعْدِي:

لَمْ يُبْقِ جُودُكَ لِي شَيْئًا أُأَمِّلُهُ تَرَكْتَنِي أَصْحَبُ الدُّنْيا بِلاَ أَمَلِ

فالشطر الثاني تذييل أكّدَ مَفْهوم الشطر الأول، وهو مما لا يصح فيه أن يجري مجرى المثل.

والتذييل من أكثر أنواع الإطناب استعمالا، ورد في الذكر الحكيم، والبيان النبوي، وشعر العرب ونثرهم، قال عنه أبوهلال العسكري، مبينا فضله، والمواطن التي يستخدم فيها:" وللتذييل في الكلام موقع جليل، ومكان شريف خطير؛ لأن المعنى يزداد به انشراحا والمقصد اتضاحا ... وينبغي أن يستعمل في المواطن الجامعة، والمواقف الحافلة؛ لأن تلك المواطن تجمع البطيء الفهم، والبعيد الذهن، والثاقب القريحة، والجيد الخاطر، فإذا تكررت الألفاظ على المعنى الواحد توكد عند الذهن اللقن، وصح للكليل البليد."[٢]

من خلال النظر في تعريف الإيغال والتذييل وشواهدهما، يمكن أن نضع الفرق بين هذين النوعين من الإطناب؛ فهما يتفقان فيما إذا جاء التذييل في نهاية الكلام؛ حيث إنه يأتي في نهاية الكلام وغيره، ويختلفان في أن التذييل لا يأتي إلا جملة، والإيغال يكون جملة وغير جملة، يقول الدسوقي: "الإيغال والتذييل بينهما من النسب العموم والخصوص الوجهي؛

(١) تحرير التحبير ٣٨٨.

(٢) الصناعتين ٣٧٣.

فيجتمعان فيما يكون في ختم الكلام لنكتة التأكيد بجملة، كما يأتي في قوله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ﴾ فهو إيغال من جهة أنه ختم الكلام بما فيه نكتة يتم المعنى بدونها، وتذييل من جهة أنه تعقيب جملة بأخرى تشتمل على معناها للتأكيد، وينفرد الإيغال فيما يكون بغير جملة، وفيما هو لغير التأكيد، سواء كان بجملة أو بمفرد كما تقدم في قوله:" الجزَّعُ الَّذِي لم يثَقَّب"، وينفرد التذييل فيما يكون في غير ختم الكلام للتأكيد بجملة، كقولك: مدحت زيدا أثنيت عليه بما فيه فأحسن إلى ومدحت عمرا أثنيت عليه بما ليس فيه فأساء إلى ."[1]

وقريب منه قول الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي -رحمه الله -:" التذييل أعم من الإيغال عموما، وهما يجتمعان فيما يكون في ختم الكلام لنكتة التأكيد بجملة كما في: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم ﴾ الآية، فهذا إيغال من جهة أنه ختم الكلام بما فيه نكتة يتم المعنى بدونها، وتذييل من جهة أنه تعقيب الجملة بأخرى تشتمل على معناها للتأكيد، وينفرد الإيغال فيما يكون بغير جملة، وفيما هو لغير التأكيد سواء كان بجملة أم بمفرد كما في قوله: "لم يثقب" وينفرد التذييل فيما يكون في غير ختم الكلام بجملة كقولك: مدحت زيدا، أثنيت عليه بما فيه فأحسن إلي. فالتذييل يكون في آخر الكلام وغير آخر الكلام بخلاف الإيغال فإنه لا يكون إلا في الآخر، والإيغال قد يكون بغير الجملة أما التذليل فلا يكون إلا بالجملة وللتوكيد."[2]

(١) حاشية الدسوقي ٢/ ٧٠٥.

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة ٣/ ٢٠٥ .

ثالثا: الفرق بين الإيغال والتكميل:

التكميل – ويسمى الاحتراس –من أنواع الإطناب التي يمكن أن تتشابك شواهده مع شواهد الإيغال، وقد ذكر ابن حجة: " أن بين الإيغال والتكميل تجاذبًا يكاد أن ينتظم كل منهما في سلك الآخر. "(١)

وقد عرفه أهل العلم بـ"أن يؤتى في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفعه"(٢)

ظاهرٌ من تعريف الخطيب السابق أن النكتة الأولى للتكميل أنه يدفع عن الكلام معنى غير مقصود، وهذا الأمر لا يوجد في الإيغال، فإن المعنى فيه قد تم، ويؤتى به لنكات أخرى على النحو الذي سبق بيانه.

وقد ذكر أهل العلم أن التكميل نوعان:

الأول: ما يأتي في وسط الكلام؛ كما في قول طرفة:

فَسَقى دِيَارَكَ – غَيْرَ مُفْسِدِها – صَوْبُ الرَّبِيعِ وَدِيمَةٌ تَهْمِي

قوله: "غَيْرَ مُفْسِدِها" احتراس من أن يكون المطر مفسدا للديار، وقد وقع التكميل فيوسط الكلام.

الثاني: أن يأتي في آخر الكلام؛ ومنه قوله –تعالى –: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ المائدة: ٥٤

يقول ابن أبي الإصبع: "فإنه ﷻ –وهو أعلم –أنه لو اقتصر على وصفهم بالذلة على المؤمنين وإن كانت صفة مدح، إذ وصفهم بالرياضة لإخوانهم المؤمنين والانقياد لأمورهم كان المدح غير كامل، فكمل مدحهم بأن وصفهم بالعزة على الكافرين فأتى بوصفهم

(١) خزانة الأدب ٢/ ٢٨.

(٢) الإيضاح ٢٠٥.

بالامتناع منهم، والغلبة لهم"[١]

ومن هذا النوع قول المتنبي:

أَشَـــدُّ مِـنَ الـرِّيَـاحِ الـهُـوْجِ بَـطْشًـــا وَأَسْـــرَعُ فِي الـنَّـدَى مِـنْـهَـا هُـبُـوْبَـا

التكميل في قوله:" وَأَسْرَعُ فِي النَّدَى مِنْهَا هُبُوْبَا " فإنه فطن إلى أنه لو أقتصر على وصفه بشدة البطش دون أن يضيف إلى البطش الكرم كان المدح غير كامل، فكمل المدح في عجز البيت بذكر الكرم، ولم يتجاوز في ذلك كله وصفي الريح التي شبه ممدوحه بها في حالتي بطشه وكرمه"[٢]

من خلال ما سبق يمكن أن أقول: إذا كان هناك بين التكميل والإيغال شيء من التشابه، فلن يصل تلك الدرجة التي تُحْدِث لبسا بين شواهده؛ فنجري شواهد أحدهما على الآخر، فهما يتشابهان في تلك الصورة التي يقع التكميل في آخر الكلام؛ كما جاء في آية المائدة﴿ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾، وبيت المتنبي " وَأَسْرَعُ فِي النَّدَى مِنْهَا هُبُوْبَا"؛ فإن الإطناب فيهما قد جاء في آخر الكلام، فهو بذلك يتلاقى مع شواهد الإيغال في تلك الصورة التي قد يقع منها الإشكال، يقول ابن أبي الإصبع بقوله :" ومتى وقع الاحتراس والتتميم في موضع الإيغال أوهم أنه إيغال."[٣]

كلام ابن الإصبع بيّن في أن الاحتراس إذا وقع في آخر الكلام قد يوهم أنه من الإيغال، على النحو الذي سبق بيانه، غير أن الوقوف عليه وتميزه أيسر من إدراك الفرق بين الإيغال والتتميم، ونكتته التي يأتي لها من السهل أن نصل لها، وعليه فإن الفرق بين الإيغال

(١) تحرير التحبير ٣٥٧.

(٢) تحرير التحبير ٣٥٨، ٣٥٩.

(٣) تحرير التحبير٢٤٨.

والتكميل يتمثل في أن الإيغال يأتي في نهاية الكلام بعد تمامه، والتكميل يأتي في آخر الكلام وحشوه، والنكتة في التكميل هي ما سبق الإشارة إليه؛ وهي دفع توهم غير المراد، والإيغال يأتي لنكات كثيرة؛ تختلف باختلاف السياق. يقول ابن حجة:" وأما التكميل، فإنه وإن أتى بعد تمام المعنى، فهو يفارق الإيغال والتذييل من وجهين: أحدهما، كونه يأتي في الحشو والمقطاع، والإيغال والتذييل لا يكونان إلا في المقطاع دون الحشو"(١)، وقريب منه قول الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي:" وبين الإيغال عموم وخصوص وجهي، لاجتماعهما فيما يكون في الأخر لدفع إيهام خلاف المقصود وانفراد الإيغال فيما ليس فيه دفع الإيهام مثل: "علم على رأسه نار" وانفراد التكميل بما في الوسط مثل "غير مفسدها"(٢)

(١) خزانة الأدب ١/ ٢٤٤.

(٢) الإيضاح ٣/ ٢٠٩.

المبحث الثاني:
الإيغال في الذكر الحكيم بين القبول والرَّدِّ

تمهيد:

من المعلوم أن القرآن الكريم نزل بلغة العرب؛ وسار على نهجهم في التعبير، غير أنه جاء بما عجزوا عن الإتيان بمثله، وما من أسلوب جاء في لغتهم إلا وتجد له في الذكر نظيرا؛ لكن شتان بين وروده في الكلام المعجز وكلام البشر.

هذا وهناك من الأساليب التي جاءت عند العرب، قد منع بعض أهل العلم ورودها في كتاب الله -تعالى -؛ فجعلوها في كلام العرب لا تتجاوزه إلى الذكر الحكيم، وحملوا تلك الأساليب على محمل آخر؛ وهذه الأساليب كثيرة؛ منها السجع، وتجاهل العارف، والواو التي اصطلحوا على تسميتها بواو الثمانية ... ، إلى غير ذلك.

ومن هذه الأساليب التي كانت محل خلاف بين أهل العلم في إثبات وجودها في كتاب الله أو نفيها، الأسلوب الذي هو محل تلك الدراسة "الإيغال "؛ فمنهم من منعه ويجعله في الشعر خاصة، ولا يُطلب مثله في القرآن، ومنهم من قال بوجوده فيه، وجاء له بشواهد كثيرة.

وبالبحث في تراث أهل العلم وجدت جلَّهم على إثباته في القرآن، ولم أجدا أحدا منهم أنكر وجوده غير ابن رشيق القيرواني[1]، صاحب "العمدة في محاسن الشعر وآدابه "؛ فقد

---

(١) ابن رَشِيق (٣٩٠ - ٤٦٣ هـ = ١٠٠٠ - ١٠٧١ م): الحسن بن رشيق القيرواني، أبو علي: أديب، نقاد، باحث. كان أبوه من موالي الأزد. ولد في المسيلة (بالمغرب) وتعلم الصياغة، ثم مال إلى الأدب وقال الشعر، فرحل إلى القيروان سنة ٤٠٦ ومدح ملكها، واشتهر فيها. وحدثت فتنة فانتقل إلى جزيرة صقلّيّة، وأقام بـ "مازر "إحدى مدنها، إلى أن توفي. من كتبه (العمدة في صناعة الشعر ونقده - ط) و (قراضة الذهب - ط) في النقد، و (الشذوذ في اللغة) و (أنموذج الزمان في شعراء القيروان) و (ديوان شعره - ط) و(ميزان العمل في =

أفرد له دراسة مستقلة، جاءت تحت عنوان :" باب الإيغال" ، وورد فيه "وهو ضرب من المبالغة كما قدمت، إلا أنه في القوافي خاصة لا يعدوها"

مذهب ابن رشيق أن الإيغال في الشعر خاصة؛ مما يعني أن لا وجود له في الذكر الحكيم عنده، ولا أعلم أحدا قبله ولا بعده ذهب إلى ما ذهب إليه، كما أنه لم يبيّن لِمَ كان هذا النوع من الإطناب في القوافي خاصة؟، ولا يطلب وجوده في القرآن؟

هذا ويمكن مناقشة ابن رشيق فيما ذهب إليه بما يأتي:

الرجل يجعل الإيغال ضربا من المبالغة، وقد ذكره بعد حديثه عنها مباشرة، وفي هذا أمور يجب الإشارة إليها:

أولا: جَعْل ابن رشيق الإيغالِ ضربا من المبالغة؛ مما يعني أن الإيغال طريق من طرقها، و في حديثه عن المبالغة ذكر أن قوما استحسنوها، وآخرين رفضوها، وابن رشيق نفسه ممن يستحسنها، إذا وقعت من الكلام موقها اللائق بها، وعاب من ينكر وجودها في القرآن، وحمل عليها شواهد من كتاب الله -تعالى -، ومما قاله :" ومن أغربها أيضاً ترادف الصفات، وفي ذلك تهويل مع صحة لفظ لا تحيل معنى، كقول الله تعالى:﴿ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ ﴾ النور: ٤٠ ....، ولو بطلت المبالغة كلها وعيبت لبطل التشبيه وعيبت الاستعارة، إلى كثير من محاسن الكلام"[1]،

فإذا كان الرجل يجعل الإيغال ضربا من المبالغة؛ مما يعني أنه فرع عنها، أيرضى بوجد

تاريخ الدول) و (شرح موطأ مالك) و (الروضة الموشية في شعراء المهدية) و (تاريخ القيروان) و (المساوي) في السرقات الشعرية. الأعلام ٢/ ١٩١.

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ٢/ ٥٥.

الأصل -المبالغة-في القرآن ولا يرضى بفرعه؟!

فكيف للرجل يجيز المبالغة في كتاب الله تعالى، ويأبى وجود الإيغال فيه ؟!وهو طريق من طرقها، فالمبالغة وإن أفادت تهويلا في الأمر وبيان كثرته، فإن الإيغال قد يؤسس معنى جديدا في الكلام، وعلى حد قوله السابق لو بطلت المبالغة في كتاب الله -تعالى -وعيبت، لبطل التشبيه والاستعارة، وكثير من محاسن الكلام، وعليه لو بطل الإيغال في القرآن الكريم، بطل كثير من محاسن الكلام!

ثانيا: الرجل يجعل الإيغال قريب الشبه من التتميم؛ حيث قال:" وليس بين الإيغال والتتميم كبير فرق؛ إلا أن هذا في القافية لا يعدوها، وذلك في حشو البيت." (١)

ولا مشكلة عنده في ورود التتميم في الذكر الحكيم، فقد استشهد لمجيئه فيه؛ وذلك في سياق حديثه عن قول زهير:

مَنْ يَلْقَ يَوْمًا عَلَى عِلاَّتِهِ هَرِمًا يَلْقَ السَّمَاحَةَ مِنْهُ والنَّدَى خُلُقًا

قال: "قوله:" على علاته" مبالغة وتتميم عجيب. والأصل في هذا قول الله :﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ الإنسان: ٨ فقوله:﴿ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ " هو التتميم"(٢)

فما دام هذا يشبه ذاك؛ حتى جعل كثير من العلماء شواهد أحدهما للآخر، فكيف يرضى بأحدهما في القرآن دون الآخر؟، وهما يخرجان من مشكاة واحدة، كما سبق.

رابعا: أنه لم يبيّن العلة التي حملته على أن يمنع وجود هذا النوع من الكلام في القرآن الكريم، فإذا كان يرى أنه يأتي بعد تمام الكلام، فيكون مما لا حاجة إليه؛ وهذا غير لائق بكتاب الله تعالى، فالرد أنه قد ذكر أن له حسنا وجمالا في بيت الخنساء؛ حيث قال:" ومن

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ٦٠.

(٢) العمدة ٢/ ٥١.

الإيغال الحسن قول الخنساء:

وَإنَّ صَـــخْـراً لَـتَـأتَـمَّ الـهُـدَاةُ بِـهِ كَـأَنَّـهُ عَـلَـمٌ فِـي رَأسِـــهِ نـارُ

وفي حديثه عن بيت مروان بن أبي حفصة: هُمُ القَوْم؛ إِنْ قَالُوا أَصَـابُوا، وإِنْ دُعُوا .... أَجَابُوا، وإِنْ أَعْطَوْا أَطَابُوا وأَجْزَلُوا

قال: ومن أحسن إيغال المحدثين قول مروان بن أبي حفصة، وذكر البيت السابق، ثم قال بعده:" فقوله " وأجزلوا " قد أتى به في نهاية الحسن."

واستحسنه في قول بشار بن برد:

وغـيـران مـن دون الـنســاء كـأنـه أســامة ذو الشــبلين حين يجوع

فقول " حين يجوع " إيغال حسن."[1] فلو كان وجوده في الكلام دون فائدة لكان وجوده في الأبيات السابق معيبا، أيكون في العربية أسلوب يقدم للكلام حسنا ولا نطلب مثله في القرآن الكريم؟! وهو الذي نزل بلسانهم، فإذا كانت مثل هذه الأساليب تقدم للكلام نكتة تذهب منه بذهابه، فإن وروده في القرآن حتما سيكون له شأن أخر.

وكان الأولى بابن رشيق أن يبيّن السبب الذي من أجله يأبى ورود هذا النوع من الإطناب في القرآن، ويجعله خاصا بالشعر، ولا ترى سببا لذلك كما رأيت، فما هي إلا دعوى مرسلة لا ينهض بها دليل. أيقول: في بيت بشار والخنساء: إيغال حسن، وفي بيت مروان بن أبي حفصة قد أتى به في نهاية الحسن، ولا نلتمس له وجودا في الذكر الحكيم؟، إذا كان هذا في كلام الشعراء، فما الحال إذا فتشت عنه في كلام الله -تعالى-.؟ إن من يجد له رونقا وحسنا وفائدة في الشعر سيجد له في الذكر شأنا آخر.

أقول: وما المانع أن يكون له في الذكر الحكيم فائدة كما أن له في الشعر فائدة؟! فيكون

(١) العمدة بتصرف ٥٨.

مجيئه إضـافة للكلام، فإذا كان من الإطناب ما يزيد الكلام حسـنا، ويربي فائدة جديدة، أفلا نطلبه في كتاب الله ؟! يقول السبكي:" وإذا كان الإيغال، إما زيادة المبالغة، أو تحقيق التشبيه، فما الموجب للقول بأنه لا يكون إلا في الشـعر؟ وهلا قطع بكونه في الشـعر والنثر؛ لأن في القرآن من ذلك ما لا يكاد ينحصر؟ [1]

مع المجيزين:

لا أعلم أحدا من أهل العلم منع وجود الإيغال في كتاب الله -تعالى -غير ابن رشـيق كما سـبق بيانه، وأهل العلم على اسـتحسـانه، وورده في القرآن الكريم؛ منهم الباقلاني (المتوفى: ٤٠٣ هـ) فقد عده من البديع، وأنه يأتي في القرآن في الفواصـل؛ ففي حديثه عن فنون البديع قال:" ويرون من البديع " الإيغال " في الشـعر خاصـة، فلا يطلب مثله في القرآن إلا في الفواصل "[2]

كلام الباقلاني يشـمل أمرين؛ الأول: يذكر قول من يرى الإيغال في الشـعر خاصـة، ولا يتجاوزه إلى القرآن الكريم، ولا أذهب بعيدا إذا قلت إنه يقصـد به ابن رشـيق؛ حيث لم يرد عند أحد من أهل العلم أن الإيغال في الشعر خاصة إلا عنده.

الثاني: أنه يرد به القول السـابق ويثبت وجوده في القرآن الحكيم، ويبيّن يُطلب في الفواصل؛ فهو بذلك يميّز حده، ويقر وجوده.

وعلى النحو السـابق من جواز وروده في القرآن الكريم، ورد قول من أنكره، جاء كلام كثير من العلم؛ ولا أسـتطيع حصـرهم؛ فكلهم على هذا الرأي، أذكر من ذلك على سـبيل الاسـتئناس قول السـبكي:" وقيل: إن الإيغال لا يختص بالشـعر، كذا عبارة المصـنف.

---

(١) عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح١/ ٦١٤.

(٢) إعجاز القرآن ٩١.

والصـواب: لا يختص به الشـعر، فعلى هذا يرسـم بأنه ختم الكلام بما يفيد نكتة يتم المعنى بدونها"[١]

ورد السيوطي -أيضا -قول من جعله خاصا بالشعر، ولا وجود في القرآن؛ فبعد أن ذكر ضـابطه قال:" وَزَعَمَ بَعْضُـهُمْ أَنَّهُ خَاصٌّ بِالشِّـعْرِ وَرُدَّ بِأَنَّهُ وَقَعَ فِي الْقُرْآنِ"[٢] ، ولا يخفى أن يقصد ب" وَزَعَمَ بَعْضُـهُمْ" ابن رشيق؛ إذ لم يمنعه غيره. ، وعليه جاء قول الشيخ المطعني: " وقد خصَّه ابن رشيق بالشعر، والصحيح خلافه."[٣]

هذا وفي نهاية هذه السطور لا يجد الباحث إلا أن يقول: إن الإيغال شأنه شأن كثير من فنون البلاغة التي وردت في كتاب الله تعالى، وأن ما قاله ابن رشـيق لا ينهض به دليل، ولم يخالف في ذلك أحد، بل من يتتبع شواهده التي جاءت في القرآن الكريم يجد لها من الرونق، والحسـن، وتأكيد المعنى المسـوق له الكلام، مما لا تجده في الكلام عند ذهابه منه، وإبطال وجود هذا الفن البلاغي في الذكر مدعاة لإبطال غيره من فنون البلاغة دون سبب.

وفي الصـفحات القادمة نقف مع بعض شـواهد الإيغال في الذكر الحكيم؛ لبيان مقاماته وأسراره.

---

(١) عروس الأفراح ١/ ٦٠٩

(٢) الإتقان في علوم القرآن ٣/ ٢٤٩، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: ١٣٩٤ هـ/ ١٩٧٤ م.

(٣) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية١/ ٢٣٤، الناشر: مكتبة وهبة، الطبعة: الأولى، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م .

المبحث الثالث:

الإيغال في القرآن الكريم مقاماته وأسراره

إنّ من يتتبع أسلوب الإيغال في القرآن الكريم يجده يرد في مقامات مختلفة؛ ما بين تأكيد لأمر من الأمور، أو قصد الإمعان في التحدي، أو الحديث عن قضية الرزق، أو بيان شدة جحود الكافرين ...إلخ إلى غير ذلك من المقامات التي يرد فيها، والتي يفيد من خلالها نكتة مهمة تتفق والغرض المسوق له الكلام، مما يبيّن أهمية هذا النوع من الإطناب، وفي الصفحات القادمة أذكر شيئا من هذه المقامات، ثم أبين سر ورود الإيغال فيها.

أولا: الإيغال في مقام إعراض الكافرين عن الحق.

من المعلوم أن رسل الله -صلى الله عليهم وسلم -لم يدخروا جهدا في دعوة الناس إلى الإيمان بالله -تعالى -، فمنهم من آمن، ومنهم من كفر، ثم إن كثيرا من الكافرين تمادوا في عنادهم وإعراضهم، فلم يؤثّر فيهم قول، أو تنفعهم نصيحة، فصار حالهم حال الأصم الذي لا يسمع، والأعمى الذي لا يرى، فأنى لمثلهم أن يهتدي؟!

هذا ومن خلال تتبع الآيات القرآنية التي تحدثت عن خطاب الرسل لقومهم يتبين أن أسلوب الإيغال ورد في خطاب النبي محمد -ﷺ -لقومه بصورة ظاهرة، ولعل هذا يعكس شدة إعراض قوم النبي -ﷺ -من جهة، وإجهاد النبي نفسه في الدعوة من جهة أخرى، حيث بذل لهم من النصح ما بذل، وما يلزم ذلك من الجهد والصبر، وفي السطور التالية أذكر شواهد له في مقام دعوة النبي -ﷺ -وكيف كان الإيغال عنصرا مهما في تصوير حرص الداعي من جهة، وشدة إعراض المدعو من جهة أخرى.

الشاهد الأول: قوله -تعالى -: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ النمل: ٨٠ - ٨٢

الشـــاهد الثاني: قوله -تعالى -: ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ **الروم: ٥١ – ٥٣.**

وقد جمعت بين هاتين الآيتين في الدراســة؛ لاتفاقهما في أمور كثيرة على النحو الذي سأبينه، فالنظر فيهما معا أولى من دراسة كل آية دراسة مستقلة؛ لبيان سر التشابه أو التغاير، وبلاغة جملة الإيغال في كلٍ.

الآيتان السابقتان اتفقتا في أنهما من القرآن المكي؛ مما يعني أن لها أسلوبا مختلفا عما يشبهما في القرآن المدني؛ حيث كشفت شدة إعراضهم عن سماع الحق، وعدم الانصياع إليه، وذلك من خلال عدة أمور تآزرت كلها في بيان شدة إعراضهم من جهة، وحرص النبي -ﷺ -على دعوتهم من جهة أخرى.

والآيتان من متشــابه النظم القرآني؛ حيث اتفقتا في الغرض المســوق له الكلام، وفي نظمهما، كما أن جملة الإيغال فيهما متفقةٌ في عدد الحروف والكلمات، ولم يختلفا إلا في صــدر الآية؛ حيث جاءت آية الروم معطوفة بالفاء على ما قبلها ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾ولم يرد ذلك العطف في آية النمل ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾وسيأتي تفسير ذلك .

جملة الإيغال ودلالتها على المعنى المسوق له الكلام:

وإنما بدأت الحديث بها دون غيرها مما اشــتمل عليه النظم، وله أثر في بيان الغرض المسوق له الكلام؛ لأنها محور الدراسة من البحث، فالدراسة برمتها قائمة عليها، ثم تأتي الأمور الأخرى تباعا.

وجملة الإيغال تمثل قمة الغرض الذي تتحدث عنه الآيتان؛ حيث إن الكلام جاء لبيان

شدة إعراض الكافرين، واستحالة قبولهم الحق، فقد بذل الرسول -ﷺ- كل ما في وسعه، دون جدوى منهم، فهم موتى وصم لا يسمعون، ولتمام المبالغة في شدة إعراضهم جاءت جملة الإيغال ﴿إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾، التي تقطع كلّ أملٍ في سماعهم، وما يتبع ذلك من نفي الهدى عنهم؛ فإن المعنى قد تمّ عند قوله "﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾، ثم جاءت بعدها جملة الإيغال ﴿إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾ لنكتتين؛ إحداهما: لفظية وهي المحافظة على الفاصلة، ومراعاة الفاصلة من الأهمية بمكان، وأخرى معنوية وهي المبالغة في شدة إعراضهم، يقول الزمخشري:" فإن قلت: ما معنى قوله :﴿إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾؟ قلت: هو تأكيد لحال الأصم، لأنه إذا تباعد عن الداعي بأن يولى عنه مدبرا كان أبعد عن إدراك صوته. "[1]، فالأصم إذا ولى مدبرا عن الداعي كان أمعن في عدم السماع، فإذا كان إسماع الأصم -وإن كان قريبا ممن يدعوه -محالا، فلا شك أنه إذا ابتعد كان أشد استحالة؛ لطول المسافة بينهما.

وللإمام الرازي -رحمه الله- لفتة رائعة؛ فعند الزمخشري أن المدعو إذا ولى وهو على حاله من الصمم فلن يصل إليه من الكلام شيء؛ لصممه من جهة، وبعد المسافة بتوليه من جهة أخرى، وعند الرازي جملة الإيغال تفيد المبالغة في عدم سماعهم؛ لأن الأصم إذا كان قريبا منك فربما يفهم شيئا من كلامك بإشارة الرأس، أو حركة الشفتين، أو اليدين، فقد يفهم من خلال تلك الإشارة ما يريده الداعي، فتقوم الإشارة مقام الصوت والسمع، وإنما يتحقق ذلك إذا كان ذاك الأصم مقابلا وقريبا ممن يدعوه؛ فتقوم رؤيته للحركة أو الإشارة مقام السمع والصوت، ولكن كيف يتحقق ذلك وقد ولى وأعطى ظهره للداعي؟! فلن يصل إليه صوتٌ، ولن يرى إشارةً، وهذا أدخل في شدة الإعراض، وأمعن في نفي الهدى عنهم؛ إذ

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧ هـ

ذهبت أسبابه، فإذا كان سماعهم محالا بتنزيلهم منزلة الصم، فعدم سماعهم بعد توّليهم أشد استحالة؛ إذ لا يرى الإنسان من ظهره. يقول الرازي: "قَالَ فِي الصُّمِّ ﴿إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾ لِيَكُونَ أَدْخَلَ فِي الِامْتِنَاعِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْأَصَمَّ وَإِنْ كَانَ يَفْهَمُ فَإِنَّمَا يَفْهَمُ بِالْإِشَارَةِ، فَإِذَا وَلَّى وَلَا يَكُونُ نَظَرُهُ إِلَى الْمُشِيرِ فَإِنَّهُ لا يَسْمَعُ وَلَا يفهم."(١)

وقريبا منه وأوضح قول ابن أبي الإصبع (المتوفى: ٦٥٤ هـ):" لا شك أنه سبحانه لما أخبر عنهم أنهم صمٌ لا يسمعون، أراد تتميم المعنى بذكر توليهم في حال الخطاب، لينفي عنهم الفهم الذي يحصل من الإشارة، فإن الأصم يفهم بالإشارة ما يفهمه السميع بالعبارة."(٢)

وقد أخذ ابن حَبَنَّكَة (المتوفى: ١٤٢٥ هـ) كلامهما وزاده بيانا فقال:" جاءت إيغالاً لتأكيد كون الصُّمّ لاَ يَسْمَعُونَ الدُّعاء. وفائدة هذا الإيغال الإشارةُ إلَى أنَّ الأصَمَّ إذا كان مُواجِهًا لمن يدعوه، كان قادراً على إدْراك أنّه يدعوه، من تحريك فمه وحركات جسده عند التكلّم، لكنه إذا كان مُدْبراً مبتعداً لم يَسْمَعْ صوتًا ولم يُدْرِكْ حركةً دالَّةً عليه. وفيه هنا أيضًا مُراعَاةُ كوْنِ المتحدّث عَنْهم صُمّاً صَمَماً معنوياً بكُفْرِهِمْ وعَدَم إيمانهم، وهؤلاء قد يسمعون بعض سماعٍ دُونَ أَنْ يُؤثّر فيهم حالةَ المواجهة، فإذا وَلَّوْا مُدْبِرين لم يَسْمَعُوا شيئًا، فأفاد هذا الإيغال معانيَ نفيسة."(٣)

هذا والكلمتان﴿ وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴾ يكاد يكون معناهما واحدا؛ حيث إنهما يفيدان معنى الإعراض، والبعد عن المتكلم، فهل كان من الممكن أن تُغني كلمة ﴿ وَلَّوْاْ ﴾عن قوله:

---

(١) مفاتيح الغيب٢٥/ ١١٠.

(٢) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن ٢٣٤/ ٢٣٥.

(٣) البلاغة العربية ٢/ ٧٩.

﴿ مُدۡبِرِينَ ﴾؟

أقول: من الأمور المسلم بها أن كل كلمة وردت في القرآن الكريم لا يقوم غيرُها مقامها، حتى ولو كان ظاهر الكلمتين اتفاقا في المعنى، وقضية الترادف في كتاب الله -تعالى- من القضايا التي شغلت أهلَ العلم قديما وحديثا، وليس هذا مقام ذكرها.

وبالعودة إلي الكلمتين اللتين تكونت منهما جملة الإيغال يتبيّن أن إحداهما لن تقوم مقام الأخرى، فمن مجموعهما نصل إلى المعنى المراد، وأول من أشار إلى الفرق الدقيق بينهما ابن أبي الإصبع حيث قال:" فإن قيل: فما معنى ﴿ مُدۡبِرِينَ ﴾؟وقد أغنى عنها قوله: ﴿ إِذَا وَلَّوۡاْ ﴾ قلت لا يغني عنها قوله: ﴿ وَلَّوۡاْ ﴾ فإن التولي قد يكون بجانب دون جانب، بدليل قوله تعالى: ﴿ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ﴾ الإسراء: ٨٣ وإن كان ذكر الجانب هنا مجازاً، ولا شك أنه سبحانه لما أخبر عنهم أنهم صم لا يسمعون، أراد تتميم المعنى بذكر توليهم في حال الخطاب، لينفي عنهم الفهم الذي يحصل من الإشارة، فإن الأصم يفهم بالإشارة ما يفهمه السميع بالعبارة، ثم علم أن التولي قد يكون بجانب من المتولي، فيجوز أن يلحظ بالجانب الذي لم يتول به، فيحصل له إدراك لبعض الإشارة، فجعل الفاصلة ﴿ مُدۡبِرِينَ ﴾ ليعلم أن التولي كان بجميع الجوانب، بحيث صار ما كان مستقبلاً مستدبراً، فاحتجب المخاطِب عن المخَاطب، إذ صار من ورائه، فخفيت عن عينيه الإشارة، كما صم أذناه عن العبارة، فحصلت المبالغة في عدم الإسماع بالكلية وهذا الكلام وإن بولغ فيه بنفي الإسماع البتة، فهو من إيغال الاحتياط الذي أدمجت فيه المبالغة في نفي الإسماع."[1]

الإيغال عنده إيغال احتياط؛ بمعنى أنه قد يتوهم السامع أن تولي المخاطَب كان من ناحية دون أخرى، فربما إذا تولى بجنب دون جنب أدرك بالجانب الذي لم يتول به حركة

(١) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن ٢٣٤/ ٢٣٥.

الداعي وإشارته، فجاء الإيغال ليدفع هذا التوهم، ويبيّن أن التولي كان بكلا الجانبين، فصار ما كان مستقبله بوجه وراء ظهره، فمن المحال أن يرى شيئا. وهي بلا شك لطيفة رائعة من ابن أبي الأصبع، وهو كثير الوقوع على مثل هذه اللطائف، وقد أخذها الزركشي دون إشارة لقائلها، أو زيادة أو نقصان فيها فقال:" فَإِنْ قِيلَ: مَا مَعْنَى: ﴿ مُدْبِرِينَ ﴾؟وَقَدْ أَغْنَى عَنْهَا: ﴿ وَلَّوْا ﴾ قُلْتُ لَا يُغْنِي عَنْهَا: ﴿ وَلَّوْا ﴾ فَإِنَّ التَّوَلِّيَ قَدْ يَكُونُ بِجَانِبٍ دُونِ جَانِبٍ بدليل قوله: ﴿ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ﴾وَإِنْ كَانَ ذِكْرُ الْجَانِبِ هُنَا مَجَازًا وَلَا شَكَّ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَمَّا أَخْبَرَ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ صُمٌّ لَا يَسْمَعُونَ أَرَادَ تَتْمِيمَ الْمَعْنَى بِذِكْرِ تَوَلِّيهِمْ فِي حَالِ الْخِطَابِ لِيَنْفِيَ عَنْهُمُ الْفَهْمَ الَّذِي يَحْصُلُ مِنَ الْإِشَارَةِ فَإِنَّ الْأَصَمَّ يَفْهَمُ بِالْإِشَارَةِ مَا يَفْهَمُ السَّمِيعُ بِالْعِبَارَةِ ثُمَّ إِنَّ التَّوَلِّيَ قَدْ يَكُونُ بِجَانِبٍ مَعَ لَحَاظِهِ بِالْجَانِبِ الْآخَرِ فَيَحْصُلُ لَهُ إِدْرَاكُ بَعْضِ الْإِشَارَةِ فَجَعَلَ الْفَاصِلَةَ: ﴿ مُدْبِرِينَ ﴾ لِيُعْلَمَ أَنَّ التَّوَلِّيَ كَانَ بِجَمِيعِ الْجَوَانِبِ بِحَيْثُ صَارَ مَا كَانَ مُسْتَقْبَلًا مُسْتَدْبَرًا فَاحْتَجَبَ الْمُخَاطِبُ عَنِ الْمُخَاطَبِ، أَوْ صَارَ مِنْ وَرَائِهِ فَخَفِيَتْ عَنْ عَيْنِهِ الْإِشَارَةُ كَمَا صُمَّ أُذُنَاهُ عَنِ الْعِبَارَةِ فَحَصَلَتِ الْمُبَالَغَةُ مِنْ عَدَمِ الْإِسْمَاعِ بِالْكُلِّيَّةِ وَهَذَا الْكَلَامُ وَإِنْ بُولِغَ فِيهِ بِنَفْيِ الْإِسْمَاعِ أَلْبَتَّةَ فَهُوَ مِنْ إِيغَالِ الِاحْتِيَاطِ الَّذِي أُدْمِجَتْ فِيهِ الْمُبَالَغَةُ فِي نَفْيِ الْإِسْمَاعِ"[(١)]

الكلام برمته مأخوذ من قول ابن أبي الإصبع، ولا يحتاج الأمر إلى دليل، ومن خلال ما سبق يتبيّن أن في كلمة ﴿ مُدْبِرِينَ ﴾ زيادة فائدة يقتضيها المقام، ولا تغني الأولى عنها.

هذا وهناك عدة أمور مهمة يجب التنبيه إليها؛ الأول: هناك آية متشابهة مع هاتين الآيتين، لكنها لم تُختم بجملة الإيغال التي ختمت بها الآيتان؛ وهي قوله -تعالى -في سورة الأنبياء: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾فقد ختمت

(١) البرهان في علوم القرآن ١/ ٩٦.

آيتا سورتي النمل والروم بجملة الإيغال ﴿إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴾وآية الأنبياء ختمت بقوله:"﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾.

وإنما لم ترد جملة ﴿إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴾مع آية الأنبياء لأن الخطاب في سورتي " النمل " والروم" كان للرسول -ﷺ-؛ حيث نسب السماع إلى الرسول -ﷺ-؛ فناسب ذلك المبالغة في نفي القدرة على إسماعهم، مع كل ما يبذله من جهد في دعوتهم، أما آية سورة " الأنبياء" فقد نسب السماع إلى القوم أنفسهم؛ فالكلام كان حكاية عن الكافرين، وليس هناك داع لكل هذا التأكيد الذي جاءت به جملة الإيغال في الآيتين محل الدراسة، ففي سورة الأنبياء يكفي تشاغلهم عن سماعه حتى لا يصل إليهم من الحق شيء، وقد أفدت في هذا مما قاله بدر الدين ابن جماعة؛ في سياق حديثه عن هذه الآيات، حيث قال:" قوله تعالى:﴿ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ الأنبياء: ٤٥[1]، وفى النمل والروم:﴿ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴾.والصم كاف فما فائدة ﴿وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴾ ؟. جوابه: أن آية الأنبياء نسب فيها السماع إليهم فلم يحتج إلى توكيد ومبالغة فيه، ولذلك قال: ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾ أي يتشاغلون عن سماعه، فهم كالصم الذين لا يسمعون. وفى آية الروم والنمل نسب الإسماع إلى النبي -ﷺ- فبالغ في عدم القدرة على إسماعهم بقوله تعالى:﴿ وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴾ لأن المولِّى عن المتكلم أجدر بعدم القدرة على إسماعه من الماكث عنده، ولذلك شبههم بالمولى، وفيه بسط عذر النبي."[2]

---

(١) من قوله تعالى:"﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾.

(٢) كشف المعاني في المتشابه من المثاني ٢٥٥، ٢٥٦ تحقيق: الدكتور عبد الجواد خلف، الناشر: دار الوفاء ـ المنصورة، الطبعة: الأولى، ١٤١٠ هـ/ ١٩٩٠ م.

الأمر الثاني: جاء النظم الكريم بقوله: ﴿ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ مقدما على لفظ ﴿ ٱلصُّمَّ ﴾، وهذا يثير سؤالين؛ الأول: أما كان يغني اللفظ الأول عن الثاني؟ وإنما قلت ذلك لأن هداية الميت وإسماعه أدخل وأمكن في الاستحالة من حصول ذلك للأصم، فَلِمَ لم يكتف بما هو أمكن في الاستحالة مما هو دونه؟ فإذا كان المدعو ميتا فلا يضره إذا كان به صمم أم لا.

هذا وقد بحثت فلم أجدا أحدا أشار إلى تلك المسألة؛ فلا شك أن إسماع الميت أشد استحالة من الأصم؛ فإنزالهم منزلة الموتى يغنى عن تنزيلهم منزلة الأصم، فإذا كان المخاطب ميتا فلن يستجيب للدعوة حتى ولو كان ذا سمع قبل الموت.

أقول: لما أنزل الله المخاطبين منزلة الموتى، أراد أن يقطع كل أمل في سماعهم الحق؛ حيث فقدوا آلة السمع، وقد قال ربنا -تعالى- ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾ الأنعام: ٣٦ فَذِكْرُ ﴿ ٱلصُّمَّ ﴾، يفيد المبالغة في نفي السماع عنهم؛ حيث اجتمع عليه أمران محالان، يحولان بينهم وبين سماع الحق، فهم بالإضافة إلى موتهم قد ذهبت أسماعهم، وهذا أدخل في الاستحالة كما ذكرت من قبل، إن الآية الكريمة جسدت تلك الصورة التي أبرزت الكافرين في صورة الموتى، الذين فقدوا آلة السمع، فهم موتى والميت لا يسمع، ولتمام استحالة السماع هم صم، فلك أن تتخيل ميتا، وهو مريض بداء الصمم قبل موته، فإذا كان إسماعه قبل موته محالا، فإسماعه بعد الموت أشد استحالة، فلن يهتدوا إذا أبدا.

هذا ولك أن تنظر سر ترتيب تلك الصفات؛ فقد بدأها بنفي سماع الموتى، ثم أعقبه بنفي سماع الأصم، ثم جاء بعدها نفي هداية الأعمى، ﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ﴾ وهو ترتيب من الأشد استحالة إلى ما هو دونه، يترقى من الأعلى إلى الأدنى؛ بنفي الهدى عن الميت أولا، ثم الأصم، وأعقب ذلك نفي هداية الأعمى.

وقد بيَّن الرازي سرَّ هذا الترتيب فقال: " إِرْشَادُ الْمَيِّتِ مُحَالٌ، وَالْمُحَالُ أَبْعَدُ مِنَ

الْمُمْكِنِ، ثُمَّ إِرْشَادُ الْأَصَمِّ صَعْبٌ فَإِنَّهُ لَا يَسْمَعُ الْكَلَامَ وَإِنَّمَا يَفْهَمُ مَا يَفْهَمُهُ بِالْإِشَارَةِ لَا غَيْرَ، وَالْإِفْهَامُ بِالْإِشَارَةِ صَعْبٌ، ثُمَّ إِرْشَادُ الْأَعْمَى أَيْضًا صَعْبٌ، فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ لَهُ الطَّرِيقُ عَلَى يَمِينِكَ يَدُورُ إِلَى يَمِينِهِ، لَكِنَّهُ لَا يَبْقَى عَلَيْهِ بَلْ يَحِيدُ عَنْ قَرِيبٍ وَإِرْشَادُ الْأَصَمِّ أَصْعَبُ، فَلِهَذَا تَكُونُ الْمُعَاشَرَةُ مَعَ الْأَعْمَى أَسْهَلَ مِنَ الْمُعَاشَرَةِ مَعَ الْأَصَمِّ الَّذِي لَا يَسْمَعُ شَيْئًا، لِأَنَّ غَايَةَ الْإِفْهَامِ بِالْكَلَامِ، فَإِنَّ مَا لَا يُفْهَمُ بِالْإِشَارَةِ يُفْهَمُ بِالْكَلَامِ وَلَيْسَ كُلُّ مَا يُفْهَمُ بِالْكَلَامِ يُفْهَمُ بِالْإِشَارَةِ، فَإِنَّ الْمَعْدُومَ وَالْغَائِبَ لَا إِشَارَةَ إِلَيْهِمَا فَقَالَ أَوَّلًا: لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى، ثُمَّ قَالَ وَلَا الْأَصَمَّ وَلَا تَهْدِي الْأَعْمَى الَّذِي دُونَ الْأَصَمِّ."[1]

رحم الله الرازي؛ فكلامه يكتب بذوب التبر، فإن القرآن قد رتب تلك الصفات من الأعلى إلى الأدنى، فمخالطة الأعمى وإرشاده أيسر من إرشاد الأصم؛ فالأصم لا يفهم إلا بالإشارة، وهناك معاني لا تقوم الإشارة فيها مقام الكلام، كما أنه ليس كل الناس قادرا على الإفهام بالإشارة، فكان تقديم الأصم على الأعمى ليمضي الكلام على نفس النسق الذي بدأ به، ولو جاء بهداية الأعمى قبل إسماع الأصم لضاع هذا الترتيب، وما كان له فائدة، هذا مضمون كلام الرازي.

هذا وهناك مسألة أخرى يجب التنبيه لها؛ هي لِمَ ورد لفظ " الدعاء " مع الصم دون الموتى؟ إنما جاء الكلام على هذا النحو السابق لأنه من المسلم به أن الميت لا يسمع الصوت، قويا كان أو ضعيفا، أما الأصم فإنه من الممكن أن يصل إليه الصوت إذا كان شديدا، فناسب ذلك أن يقرنه بلفظ الدعاء، حتى ينفي عنه أن يصل إليه من كلام الداعي شيء، يقول الرازي -رحمه الله-:" قال فِي الأصم لا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ وَلَمْ يَقُلْ فِي الْمَوْتَى ذَلِكَ لِأَنَّ الْأَصَمَّ قَدْ يَسْمَعُ الصَّوْتَ الْهَائِلَ كَصَوْتِ الرَّعْدِ الْقَوِيِّ وَلَكِنَّ صَوْتَ الدَّاعِي لَا يَبْلُغُ

(١) مفاتيح الغيب٢٥/ ١١٠.

ذَلِكَ الْحَدَّ فَقَالَ إِنَّكَ دَاعٍ لَسْتَ بِمُلْجِئٍ إِلَى الْإِيمَانِ وَالدَّاعِي لَا يُسْمِعُ الْأَصَمَّ الدُّعَاءَ."[١]

الشاهد الثاني:

قوله -تعالى -: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٦ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٧ ﴾ لقمان: ٦ -٧

ذكر أهل العلم أن هذه الآيات نزلت في منع الغناء، وكل ما من شأنه أن يصدَّ الناس عن دين الله -تعالى -، :"وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي النَّضْرِ بْنِ الْحَارِثِ، لِأَنَّهُ اشْتَرَى كُتُبَ الْأَعَاجِمِ: رُسْتُمَ، وَإِسْفِنْدِيَارَ، فَكَانَ يَجْلِسُ بِمَكَّةَ، فَإِذَا قَالَتْ قُرَيْشٌ إِنَّ مُحَمَّدًا قَالَ كَذَا ضَحِكَ مِنْهُ، وَحَدَّثَهُمْ بِأَحَادِيثِ مُلُوكِ الْفُرْسِ وَيَقُولُ: حَدِيثِي هَذَا أَحْسَنُ مِنْ حَدِيثِ مُحَمَّدٍ، حَكَاهُ الْفَرَّاءُ وَالْكَلْبِيُّ وَغَيْرُهُمَا. وَقِيلَ: كَانَ يَشْتَرِي الْمُغَنِّيَاتِ فَلَا يَظْفَرُ بِأَحَدٍ يُرِيدُ الْإِسْلَامَ إِلَّا انْطَلَقَ بِهِ إِلَى قَيْنَتِهِ فَيَقُولُ: أَطْعِمِيهِ وَاسْقِيهِ وَغَنِّيهِ، وَيَقُولُ: هَذَا خَيْرٌ مِمَّا يَدْعُوكَ إِلَيْهِ مُحَمَّدٌ مِنَ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ وَأَنْ تُقَاتِلَ بَيْنَ يَدَيْهِ."[٢]

والآية الثانية -وهي محل الشاهد -تصوّر شدة إعراض هذا الرجل، وتوليه عن سماع الحق واستكباره، دون أن يترك سماع الآيات أثرا فيه، فيمضي وكأنه لم يسمعه، ثم جاءت جملة الإيغال ﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗا ﴾ تؤكد المعنى السابق، فإن المعنى قد تمَّ عند قوله: ﴿ وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا ﴾، ثم جاءت جملة الإيغال تأكيدا لهذا المعنى؛ لأن جملة ﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗا ﴾ هي بعينها جملة ﴿كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا ﴾؛ فالذي في أذنيه وقر لا يسمع، وهذا

---

(١) مفاتيح الغيب ٢٥/ ١١٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٤/ ٥٢، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر : دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة : الثانية ، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م.

الإيغال يقطع كلَّ أمل في سماعهم الحق.

هذا وقد تعرض الشيخ عبد القاهر لتلك الآية؛ وذلك في سياق حديثه عن الجملِ التي تتصلُ من ذاتِ نفسها بالتي قَبلها، وتَستغني بربطِ معناها عن حَرْفِ عطفٍ يربُطها، وهي كلُّ جملةٍ كانت مؤكِّدةً للتي قبلها ومبينِّةً لها، وكانت إذا حُصِّلتْ لم تكن شيئًا سِواها، حيث قال:" ومن الواضحِ البيِّنِ في هذا المعنى قولُه تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾، لم يأت معطوفًا. نحو: ﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾ لأنَّ المقصودَ من التشبيه بِمَنْ في أذنيه وقْرٌ، هُوَ بعينه المقصودُ من التشبيه بمن في أذنيه وقر، وهو بعينه المقصودُ مِنَ التشبيه بِمَنْ لم يسمع، إلاَّ أنَّ الثاني أبلغُ وأكَدُ في الذي أُرِيدَ. وذلك أنَّ المعنى في التشبيهين جميعًا أنْ يَنْفِيَ أن يكونَ لتلاوةِ ما تُلِيَ عليه من الآياتِ فائدَةٌ معه، ويكونَ لها تأثيرٌ فيه، وأنْ يجعلَ حالَه إذا تُلِيتْ عليه كحالِه إذا لم تُتْلَ. ولا شبهةَ في أن التشبيه بِمَنْ في أذنيه وقرٌ ابلغُ وآكَدُ في جعلِه كذلكَ، مِنْ حيثُ كان مَنْ لا يصحُّ منه السَّمْعُ وإن ارادَ ذلكَ، أبعدَ مِنْ أنْ يكونَ لتلاوةِ ما يُتْلَى عليه فائدةٌ، مِنَ الذي يصحُّ منه السَّمْعُ إلا أنه لا يسمعُ، إما اتفاقًا وإما قصداً إلى أنْ لا يسمعَ."[1]

مصطلح الإيغال لم يرد عند الشيخ البتة، ولكنَّ كلامه جاء كاشفا عن سر بلاغته في الآية السابقة؛ فالمراد بمن في أذنيه وقر هو بعينه الذي تليت عليه الآيات، ولم يسمع منها شيئا، إلا أن جملة الإيغال أوكد في الدلالة على المعنى المسوق له الكلام وأبلغ، فالذي في أذنيه وقر من المحال أن يسمع، وهذا يكشف شدة إعراضهم، واستحالة أن يصل لهم من الحق شيء.

يفهم من كلامه أن الجملة الثانية تفيد مضمون الجملة الأولى، فهما متصلتان في

---

(١) دلائل الإعجاز ٢٢٨.

المعنى؛ إذ معناهما واحد كما سبق بيانه، فعليه يكون المعنى قد تم عند الجملة الأولى، إلا في أن في الثانية زيادة معنى لا يوجد في الأولى، وهو ما أشار إليه الشيخ؛ فالتشبيه بمن في أذنيه وقرٌ أبلغ في نفي السماع عنهم وأمكن، وعليه فالغرض من الإيغال المبالغة في تحقيق التشبيه، وهي مبالغة أست معنى جديدا تذهب بذهاب جملة الإيغال، فالجملة الأولى ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ وإن نفت السماع عنهم، لكن مازال الأمل موجودا في سماعهم؛ إذ ليس عندهم ما يحول بينهم وبين السماع، فلمَّا جاءت جملة الإيغال أذهبت أي فرصة لهم في سماع الحق، وما يترتب عليه من الهدى؛ إذ القوم في آذانهم وقرٌ.

هذا ومما يجب التنبيه إليه أن هناك آيةً وردت في سورة "الجاثية"، تتحدث عن هذا الذي يسمع آيات الله ثم يصر مستكبرا كأنه لم يسمع شيئا، دون أن تأتي معها جملة الإيغال، التي سبق ذكرها في سورة لقمان، وهذه الآية هي قوله -تعالى -:" ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠﴾ الجاثية: ٧ - ١٠

القصتان متشابهتان إلى حد كبير في الغرض المسوق له الكلام؛ وهو بيان شدة إعراض هذا الذي تليت عليه آيات الله -تعالى -ثم اختلفتا في خلو سورة" الجاثية " من جملة الإيغال التي ورد ذكرها في شاهد" لقمان" فقوله تعالى :﴿ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ إخبار عن هذا الذي تليت عليه آيات القرآن ثم أصرّ على استكباره وعناده، فلم يؤثر فيه قول، وكأنه لم يسمع من الحق شيئا، ومع ذلك جاءت الآية خالية من جملة الإيغال؛ فلم يقل: ﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ كما جاء في آية لقمان.

هذا وقد سبقت الإشارة إلى سر مجيء الإيغال في آية لقمان، ويبقى السؤال ما سر

تركها في سورة الجاثية؟ وقد تشابهت القصتان على النحو الذي سبق ذكره.

وكان الخطيب الإسكافي (المتوفى: ٤٢٠ هـ) أول من أشار إلى تلك النكتة؛ حيث قال: " للسائل أن يسأل عن فائدة قوله: ﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗا﴾، واستغناء الكلام عنه في سورة الجاثية مع أن القصتين مشتبهتان؟

والجواب: أن هذا الكافر لما أخبر الله -تعالى -عنه في سورة لقمان أنه يعرض عن القرآن إذا سمعه غير منتفع به حتى كأنه لم يسمعه، وتستمر به هذه الحال كما تستمر لمن به صَمَم، وقوله في الجاثية: ﴿ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا﴾ يدل على ما دل عليه: ﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗا﴾ لأن الإصرار عزم لا يتهم معه بإقلاع، فإذا أصر على التصام فهو كمن في أذنيه وقر، فصار أحد اللفظين يغني عن الآخر، ويقوم مقامه، ويؤدي من المعنى أداءه، فلذلك لم يجمع بينهما، وكان الموضع الذي ذكر فيه: ﴿وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا﴾ أحق بقوله: ﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗا﴾ والموضع الذي ذكر فيه الإصرار على ترك الاستماع أغنى عن ذكر ﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗا﴾. "[1]

السبب عند الإسكافي يتمثل في أن آية "الجاثية" ورد فيها ما يُغْنِي عن ذكر جملة الإيغال التي وردت في " لقمان "؛ يتمثل ذلك في جملة ﴿ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا﴾ فالإصرار منه شبيه بمن في أذنيه وقر، حيث إن الإصرار على الاستكبار دليل على أنه لم يصل إليه من الحق شيء، كأنه أصم، فأغنى ذكر إصراره عن ذكر ﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗا﴾، أما في سورة لقمان فلم يرد فيها ما يفيد هذا الإصرار، فكان ذكر جملة الإيغال فيها واجبا؛ لبيان شدة الإعراض.

وما ذكره الإسكافي في النفس شيء منه؛ لأن الإصرار على عدم السماع لا يرقى درجة

---

(١) درة التنزيل وغرة التأويل ١/ ١١٨٤، دراسة وتحقيق وتعليق: د/ محمد مصطفى آيدين، الناشر: جامعة أم القرى، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.

من به صمم، فالأول مظنة أن يصل إليه من كلام الداعي شيء ولو صدفة، فربما ترك السماع فيه أثرا، وفي السيرة ما يشهد أن بعضهم سجد عند سماع القرآن، وقد كان من أشد الناس استكبارا وإعراضا، فقد يسمع دون قصد للسماع، فالتعبير بمن في أذنيه وقر أمكن في عدم السماع؛ إذ ذهبت أدآته، وعليه فيلزم البحث عن علة أخرى غير التي ذكرها الإسكافي، تفسر سرَّ خلو آية "الجاثية" من جملة الإيغال، التي سبقت في سورة "لقمان" .

أقول: لعل السر في تلك المخالفة يكمن في أن المخاطب في سورة " لقمان" كان أشد إعراضا، وأكثر استكبارا، ويؤكد ذلك سياق الآيات؛ ففي آية " لقمان"جاء قوله:"﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾، يفهم منه أن المدعو الذي عرضت عليه الآيات، ليس من حسابه أن يذهب فيسمع، ثم يكذب بغد ذلك، وكأنَّ رغبة سماع الحق لم تمر بباله قط، وإنما ذهب إليه الرسول -ﷺ-وأخذ يتلو عليه القرآن، فهو مرغم على أن يسمع، ونأخذ هذا المعنى من مطلع الآية﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا ﴾، فالرسول -ﷺ-هو ذهب إليه في ناديه وأسمعه تلك الآيات، أما في سورة "الجاثية " لم يصل المُعْرِضُ في الاستكبار منزلة الأول، بدليل مطلع الآية ﴿ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ﴾؛ فهو على كفره وعناده سمع، وربما ذهب وسمع بنفسه، وبعد سماعه أصر على عناده وكفره كما بيّنت الآية، يقول ابن كثير:﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ ﴾ أَيْ: إِذَا حَفِظَ شَيْئًا مِنَ الْقُرْآنِ كَفَرَ بِهِ وَاتَّخَذَهُ سُخْرِيًّا وَهُزُوًا "[1]ففي كلا الآيتين كفرٌ واستكبارٌ وصدودٌ، إلا أنه في سورة " لقمان" لم يصل ما وصل إليه الأول، فهو كما قال ابن كثير: إِذَا حَفِظَ شَيْئًا مِنَ الْقُرْآنِ كَفَرَ بِهِ وَاتَّخَذَهُ سُخْرِيًّا وَهُزُوًا، فهو على إصراره وكفره لا تجد هذا الصدود بلغ هذا المبلغ ما

(١) تفسير القرآن العظيم ٧/ ٢٦٥، المحقق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩.

وجدت عند الأول، بدليل أنه سمع وحفظ، ثم بعد ذلك أصر على كفره واستكباره، فناسب ذلك مجيء جملة الإيغال في سورة "لقمان" وذهابها في سورة "الجاثية".

وقد أفدت في هذا مما قاله برهان الدين الكرماني، (المتوفى: نحو ٥٠٥ هـــ) :" وَلم يُبَالغ فِي الجاثية هَذِه الْمُبَالغَة لما ذكر بعده﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ﴾لِأَن الْعلم لَا يحصل إِلَّا بِالسَّمَاعِ أَو مَا يقوم مقَامه من خطّ أَو غَيره"[1]، فالمحاطب علم تلك الآيات، والعلم لا يحصل للإنسان إلا بوجود أسبابه؛ كالسماع وما يقوم مقامه من الكتابة أو الإشارة ونحوه، إذا هو سمع الآيات وخبرها، فهو على شدة إعراضه، وإصراره على كفره، لم يصل ما وصل إليه المخاطب في سورة "لقمان".

وقد أخذ الفيروزآبادى (المتوفى: ٨١٧ هـ) كلام الكرماني بفصه ونصه فقال:" وبالغ في ذمه؛ لتركه استماع القرآن فقال: ﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗا ﴾. أَى صَمَمًا، لا يقرع مَسامعه صوت. ولم يبالغ في الجاثية هذه المبالغة؛ لِمَا ذكر بعده ﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا شَيۡـًٔا ﴾لأَنَّ ذلك العلم لا يحصل إِلاَّ بالسّماع، أَو ما يقوم مقامه: من خطٍّ وغيره."[2]، الكلام بيّن في مأخوذ من قول الكرماني..

بهذا يتبيّن أن المقام في سورة "لقمان " كان يطلب جملة الإيغال؛ فهي كاشفة عن كفر واستكبار وشدة إعراض هذا الذي تُلِيت عليه آيات الله -تعالى -؛ فكانت جملة الإيغال مبينة قمة صدوده وعناده، وما يتبع ذلك من استحالة سماعه وقبوله الحق من جهة أخرى، فالإطناب بالإيغال في هذا المقام مما لابد منه.

---

(١) البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان ٢٠٤.

(٢) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز١/ ٣٧١، المحقق: محمد علي النجار، الناشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، عام النشر: ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦م.

أما في سورة الجاثية فكان الصدود أقل وطأة من سابقه، فلم يكن الأمر يطلب جملة الإيغال على النحو الذي سبق بيانه.

الشاهد الثالث:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾يس:٢٠ – ٢١

هذا الشاهد جاء في سياق المثل الذي ساقه ربنا- -لأهل قريةٍ أرسل إليهم اثنين من الرسل فكذبوهما، ثم أرسل ثالثا، فدعاهم للإيمان بالله، فكفروا وازدادوا عنادا، وقالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا، وما أنزل الرحمن من شيء ...

وكان من حق الداعي أن يبيّن ما للرسل من صفات داعية للإيمان؛ ومما قاله: ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا ﴾، إن رسل الله لا يسألون أجرا على دعوتهم؛ فليس لهم مغنم من وراء تلك الدعوة؛ فهي دعوة خالصة لله -تعالى -، إن المعنى قد تمّ عند قوله: ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا ﴾، ثم جاءت جملة الإيغال ﴿ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ لنكتتين؛ لفظية وهي المحافظة على الفاصلة، يقول ابن أبي الإصبع:" ومن إيغال الكتاب العزيز أيضاً قوله تعالى:﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ فإن المعنى تم بقوله سبحانه:﴿ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا ﴾ ثم أراد الفاصلة لمناسبة رءوس الآي، فأوغل بها كما ترى، حيث أتى بها تفيد معنى زائداً على معنى الكلام"[1]

النكتة الأخرى تتمثل في المبالغة في حث المخاطب على الإيمان بالرسل؛ فالرسل -عليهم السلام -مهتدون، ولكن جملة الإيغال فيها ترغيب للمخاطبين، يقول السيوطي: "فَقَوْلُهُ: ﴿ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ إِيغَالٌ؛ لِأَنَّهُ يَتِمُّ الْمَعْنَى بِدُونِهِ إِذِ الرَّسُولُ مُهْتَدٍ لَا مَحَالَةَ، لَكِنَّ فِيهِ زِيَادَةَ

(١) تحرير التحبير ١/ ٢٣٦.

مُبَالَغَةٍ فِي الْحَثِّ عَلَى اتِّبَاعِ الرُّسُلِ وَالتَّرْغِيبِ فِيهِ"[1]

فمتى أيقن المخاطب أن رسل الله مهتدون لم يكن عنده أدنى شك في رسالتهم، والحرص على اتباعهم، فطبيعة النفس الميل إلى المهتدين؛ فهم أولى الناس بالاتباع، يقول الدكتور عبد العظيم المطعني: "فقولهَ تعالى:﴿ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ تأكيد لذلك المعنى، وتقرير له على وجه أمكن وأمثل، لأن اتباع المهتدي أمر مستحسن في نفسه تميل إليه النفوس ولا يختلف في فضله منصفان."[2]

إن من عنده شيء من الفكر لن يجد أمامه إلا الإيمان بالرسل، فما سألوا الناس أجرة من أجل تبليغهم الرسالة، ثم هم مهتدون، والقوم يعلمون هداهم، فليست جملة الإيغال مما لا يعلمه المخاطب، وإنما يعلمون ما عليه الرسل من الصلاح قبل بعثتهم، ولكن الهوى والعناد حال بينهم وبين الإيمان بهم، إن جملة الإيغال بقدر ما تحمل من حث للكافرين على الإيمان بالرسل، بقدر ما تحمل من تقريع للمخاطبين؛ فماذا تنتظرون وقد جاءكم من تعلمون صدقهم وهداهم، فالمشكلة ليست فيهم، وإنما في قوم جاءهم الحق وهو عنه معرضون.

ثانيا: الإيغال في مقام التحدي بالقرآن.

من المعلوم أن الله -تعالى -تحدى العرب في بضاعتهم التي لا يضاهيها-عندهم - بضاعة؛ فالكلام كان من أفضل ما يفتخرون به إن لم يكن أفضله؛ ولِمَ لا ؟ فما عرفت البشرية بيانا وصل الغاية كبيانهم، فلا كلمة تعلو كلامهم، ثم يأتي القرآن فينزلهم من عليائهم، ويثبت عجزهم، " وقطع أطماعهم في معارضته، فظلوا مقموعين مدحورين ثلاثة

(١) الإتقان في علوم القرآن ٣/ ٢٤٩.

(٢) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية١/ ٢٣٤.

وعشرين عاما، يتجرعون مرارة الإخفاق، ويهطعون لقوارع التبكيت، وينغضون رؤوسهم تحت مقارع التحدي والتعيير، مع أنفتهم وعزتهم، واستكمال عدتهم وكثرة خطبائهم وشعرائهم، وشيوع البلاغة فيهم، والتهاب قلوبهم بنار عداوته، وترادف الحوافز إلى مناهضته، وعرفانهم أن معارضته بسورة واحدة أو آيات يسيرة أنقض لقوله، وأفعل في إطفاء أمره، وأنجع في تحطيم دعوته، وتفريق الناس عنه - من مناجزته، ونصبهم الحرب له، وإخطارهم بأرواحهم وأموالهم، وخروجهم عن أوطانهم وديارهم."[1]

ولقد تفرقت آيات التحدي في القرآن الكريم، في المكي والمدني، فلم يكن تحديه لهم مرة أرسلها ثم سكت عنها؛ بل ظل صيحة تقرع آذانهم من حين إلى حين، عسى أن يحرك حميتهم، فيقوموا إلى معارضته، ولكن في كل مرة يثبت عجزهم. ومجاراة في تحديهم يطلب منهم أن يأتوا بمثله، أو سورة، أو عشرة سور ...فما استطاع أحدهم أن يأتي ببنت شفة.

أقف الآن مع أول آيات التحدي نزولا؛ وهي آية سورة الإسراء؛ وفيها تحدي المشركين بأن يأتوا بمثل القرآن الكريم، قال -تعالى -: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ الإسراء ٨٨

في هذه الآية الكريمة يتحدى الله القوم الذين نزل القرآن فيهم، بأن يأتوا بمثله، وهم أهل الفصاحة والبيان، وليس عندهم صناعة أغلى من صناعة الكلام، فهي ميدان فخرهم، وبضاعتهم التي لا يُجارون فيها، وإذا بالقرآن يأتيهم بكلام من جنس ما يتكلمون، فكفروا به وقالوا: كلام بشر، فجاء التحدي ليثبت عجزهم، وأنهم لا طاقة لهم به، وإمعانا في بيان عجزهم جاءت جملة ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ ﴾؛ وإنما ذكر اجتماعهم لأنه الإنسان بمفرده مهما أُوتي من البيان ربما تقصر همته؛

(١) إعجاز القرآن ٦.

فيأتي به وفيه شيء من النقص، فربما يجبر نقصَه شخصٌ آخر، فَهَبْ البشرية كلها اجتمعت لِتقوِّم شيئا من كلام البشر، وتجبر ما فيه من خلل، ويصلوا بالبيان أعلى درجاته، ويرتقوا من الفصاحة سنامها، فهذا الاجتماع مظنة أن يأتوا بأفضل البيان، ولِمَ لا والقوم مجتمعون؟، وهم أرباب الكلم، فلن يروا خللا إلا أصلحوه، ولا نقصا إلا أتموه، فقد اجتمعوا من أجل أن يأتوا بمثل القرآن، وأعان بعضهم بعضا على ذلك، ثم " ألم يكن يخشى بهذا التحدي أن يثير حميتهم الأدبية فيهبوا لمنافسته وهم جميع حذرون؟ وماذا عساه يصنع لو أن جماعة من بلغائهم تعاقدوا على أن يضع أحدهم صيغة المعارضة، ثم يتناولها سائرهم بالإصلاح والتهذيب كما كانوا يصنعون في نقد الشعر، فيكمل ثانيهم ما نقصه أولهم، وهكذا، حتى يخرجوا كلامًا إن لم يبزه فلا أقل من أن يساميَه ولو في بعض نواحيه؟ "[1]

ثم انظر هل أغنى جمعهم شيئا؟ وهل استطاعوا أن يأتوا بمثله وهو كلام بشر كما قالوا؟ وهم الذين قالوا: ﴿ لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ الأنفال ٣١، فإذا كان محمد -ﷺ- وهو بشر مثلهم جاءهم به ولم يكن له من البشر معين، فما بال القوم وقد اجتمعوا، وأعان بعضهم بعضا، ثم عجزوا وسقط في أيديهم.

إن المعنى قد تمّ عند نهاية جواب الشرط ﴿ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ ﴾، ثم جاءت جملة الإيغال ﴿ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ لنكتتين؛ لفظية وهي المحافظة على الفاصلة، ومعنوية وهي المبالغة في التحدي، فالقوم اجتمعوا كلهم، وكانوا عونا لبعضهم في محاولة منهم للمجيء بمثل القرآن، إذ ما فائدة اجتماعهم دون أن يعين بعضهم بعضا، إن جملة الإيغال جاءت لتصل بالتحدي ذروته، فأول الأمر طلب اجتماع الإنس والجن، ثم إمعانا في

(١) النبأ العظيم ٧٠، قدم له: أ. د. عبد العظيم إبراهيم المطعني، الناشر: دار القلم للنشر والتوزيع، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥م.

التحدي جعلهم متعاونين على يأتوا بمثله، حتى لا يدع لهم سبيلا يأتون بأفضل ما عندهم إلا وسلكوه.

يقول الشيخ محمد بن عبد الله دراز (المتوفى: ١٣٧٧ هـ):" لقد سجل التاريخ هذا العجز على أهل اللغة أنفسهم في عصر نزول القرآن، وما أدراك ما عصر نزول القرآن؟ هو أزهى عصور البيان العربي، وأرقى أدوار التهذيب اللغوي، وهل بلغت المجامع اللغوية في أمة من الأمم ما بلغته الأمة العربية في ذلك العصر من العناية بلغتها، حتى أدركت هذه اللغة أشدها؛ وتم لهم بقدر الطاقة البشرية تهذيب كلماتها وأساليبها؟ .. وما هذه الجموع المحشودة في الصحراء، وما هذه المنابر المرفوعة هنا وهناك؟ إنها أسواق العرب تعرض فيها أنفس بضائعهم وأجود صناعاتهم؛ وما هي إلا بضاعة الكلام، وصناعة الشعر والخطابة، يتبارون في عرضها ونقدها، واختيار أحسنها والمفاخرة بها، ويتنافسون فيها أشد التنافس، يستوي في ذلك رجالهم ونساؤهم، وما أمر حسان والخنساء وغيرهما بخافٍ على متأدب. فما هو إلا أن جاء القرآن.. وإذا الأسواق قد انفضت، إلا منه، وإذا الأندية قد صَفِرت، إلا عنه، فما قدر أحد منهم أن يُباريَه أو يجاريَه، أو يقترح فيه إبدال كلمة بكلمة، أو حذف كلمة أو زيادة كلمة، أو تقديم واحدة وتأخير أخرى؛ ذلك على أنه لم يسد عليهم باب المعارضة بل فتحه على مصراعيه، بل دعاهم إليه أفرادًا أو جماعات. بل تحداهم وكرر عليهم ذلك التحدي في صور شتى، متهكمًا بهم متنزلًا معهم إلى الأخف فالأخف: فدعاهم أول مرة أن يجبئوا بمثله، ثم دعاهم أن يأتوا بعشر سور مثله، ثم أن يأتوا بسورة واحدة مثله، ثم بسورة واحدة من مثله، وأباح لهم في كل مرة أن يستعينوا بمن شاءوا ومن استطاعوا، ثم رماهم والعالم كله بالعجز في غير مواربة؛ فقال: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ

هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ .." [1]

فجملة الإيغال جاءت تمثل قمة التحدي؛ وهذا نهج القرآن في كل آيات التحدي، أن يلهب حماستهم، ولا يدع لهم أي عذر؛ كأن يقولوا: لو كان كذا فعلنا، ألا فافعلوا كل شيء يقوي أمركم، ويبطل حجة صاحبكم، ويجعل لكم الغلبة، فلو كان اجتماع البشر والجن مظنة أن يأتوا بمثله، ألا فليجتمعوا، ويقرعوا الحجة بالحجة، والبيان بالبيان، فإذا كان الرسول -ﷺ- وهو الذي لم يكن له علاقة بشعر أو غيره مما تبرز فيه الملكة والبيان، وفي القوم من هو ملء السمع والبصر شعرا وخطابة، فما بالهم الآن عاجزين؟! "فلعمري لو كان فيهم لسان يتحرك لما صمتوا عن منافسته وهم الأعداء الألداء، وأباة الضيم الأعزاء، وقد أصاب منهم موضع عزتهم وفخارهم، ولكنهم لم يجدوا ثغرة ينفذون منها إلى معارضته، ولا سُلَّمًا يصعدون به إلى مزاحمته، بل وجدوا أنفسهم منه أمام طود شامخ، فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبًا ... حتى إذا استيأسوا من قدرتهم واستيقنوا عجزهم ما كان جوابهم إلا أن ركبوا متن الحتوف، واستنطقوا السيوف بدل الحروف. وتلك هي الحيلة التي يلجأ إليها كل مغلوب في الحجة والبرهان، وكل من لا يستطيع دفعًا عن نفسه بالقلم واللسان."[2] .

بهذا يتبيَّن كم كانت جملة الإيغال لبنة مهمة في صرح التحدي، الذي أقامه القرآن الكريم، فما استطاعوا مجاراته، ولم يكن أمامهم إلا أن يقولوا أساطير الأولين، وهم يعلمون أنهم كاذبون، فالإيغال وإن كان له في شعرهم نكتة، فإن له في القرآن عجبا، فالحكم المسوق له الكلام في الآية استطاعت جملة الإيغال تأديته على الوجه الأكمل.

---

(١) النبأ العظيم ١١٢، ١١٣.

(٢) السابق.

ابن أبي الإصبع ومذهبه في الإيغال السابق:

ابن أبي الإصبع واحد من أهل العلم الذين تناولوا هذا النوع من الإطناب بالدراسة؛ ففي سياق الاستشهاد عليه من القرآن الكريم تحدث عن إيغال الاحتياط في قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴾وذلك على النحو الذي سبق بيانه في الحديث عن تلك الآية الكريمة، وكلامه عن الإيغال فيها متفق مع ما قاله أهل العلم، ولكن الرجل له في إيغال الاحتياط مسألتان تحتجان إلى مناقشة؛ المسألة الأولى تتمثل في أن إيغال الاحتياط يكون تتميما، ولا يفيد في الكلام إلا الاحتياط، ولا يأتي بمعنى زائد على الكلام كالمبالغة وغيرها من المعاني التي يفيد ها الإيغال؛ جاء ذلك في سياق حديثه عن الإيغال في بيت زهير:

كَأَنَّ فُتاتَ العِهنِ في كُلِّ مَنزِلٍ نَزَلنَ بِهِ حَبُّ الفَنا لَم يُحَطَّمِ

يقول ابن أبي الإصبع:" فإن حب الفنا أحمر الظاهر، أبيض الباطن، فهو لا يشبه الصوف الأحمر إلا ما لم يحطم، وقد يكون الإيغال تتميماً كبيتي امرئ القيس وزهير، ولكن ذلك لا يسمى إلا إيغالاً لانتهاء المعنى إلى آخر البيت، وهذا إيغال الاحتياط، وهو دون إيغال المبالغة من جهة الاصطلاح لكونه لم يفد إلا الاحتياط من الدخل دون الإتيان بمعنى زائد على معنى الكلام"[1]، وهذا الكلام لا أناقشه في هذا المقام؛ وإنما ذكرته لأنه تمهيد للمسألة الثانية، والتي له صلة بالآية الكريمة محل الدراسة.

المسألة الثانية: وهي المراد من هذا الكلام؛ تتمثل في أن الرجل له رأي سَبق إليه؛ يتمثل هذا الرأي في أن إيغال الاحتياط قد يأتي بصورة مختلفة عما سبق؛ وذلك بأن يرد في مجموعة من الجمل المتفرقة في القرآن وليس من مقطع واحد، فالمتفق عليه عند أهل العلم أن الإيغال

(١) تحرير التحبير ٢٣٤.

يأتي في خاتمة البيت بعد تمام المعنى، أو في الفاصلة القرآنية، بعد تمام معنى الآية، ثم تأتي جملة الإيغال مراعاة للفاصلة من جهة، أو للمبالغة وإضافة نكتة جديدة على النحو الذي سبق.

والأمر عنده مختلف؛ فهو وإن وافق البلاغيين فيما سبق، إلا أن من مذهبه أن الإيغال قد يتشكِّل من عدة جمل وردت في مواضع مختلفة، ويجمعها غرض واحد، وتأتي إيغال احتياط؛ لدفع توهم معنى غير مراد، فالإيغال فيها كلها، وليس في آية دون أخرى، وهو -كما ترى -كلام جديد في الإيغال، لم يقل به أحد قبله، ولا يندرج تحت حدَّ الإيغال الذي اصطلح عليه البلاغيون،

واستشهد على ذلك بآية سورة الإسراء السابق ذكرها، يقول ابن أبي الإصبع:" قد يأتي الاحتياط في غير المقاطع من مجموع جمل متفرقة في ضروب من الكلام شتى يجمعها معنى واحد كقوله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ ﴾ لآية، وقوله سبحانه: ﴿ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ ﴾ هود: ١٣، وقوله﴿ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ البقرة: ٢٣ ، كما يقول الرجل لمن يجحده: ما يستحق علي درهماً ولا دانقاً ولا حبة، ولا كثيراً ولا قليلاً، ولو قال: ما يستحق علي شيئاً، لأغنى في الظاهر عن ذلك، لكن التفصيل والتنزل دل على الاحتياط وعلى شدة الاستبصار في الإنكار."[1]

سبق أن ذكرتُ أن قوله -تعالى -﴿ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ إيغال؛ فالجملة التي سبقتها ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ ﴾ قد تم المعنى عندها، ثم جاءت جملة الإيغال تأكيدا للتحدي، هذا ما عليه أهل

(١) تحرير التحبير ٢٣٤، ٢٣٥.

العلم جميعا، أما ابن أبي الإصبع لم يذكر أن الآية نفسها فيها إيغال في فاصلتها، وإنما نظر لمعنى الآية في سياقها الكبير؛ أعني القرآن الكريم كله، فذكر أن الآيات التي جاءت في تحدي المشركين، يجب أن يُنظر فيها نظرة كلية، فقوله: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ ﴾ ، وقوله: ﴿ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ ﴾ وقوله ﴿ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ من مجموع هذه الآيات يتشكل الإيغال، وهو من إيغال الاحتياط، حيث لما تحداهم القرآن أن يأتوا بمثله، تحداهم بعد ذلك بعشر سور، ثم سورة واحدة، دفعا لتوهم أنه لو سكت عن التحدي بعشر سور، أو سورة لاستطاعوا، فذكر لهم كل الأوجه في التحدي؛ فلما طلب أن يأتوا بمثله، تحداهم في موضع آخر بعشر سور، ثم سورة، حتى لا يبقى مدخل لأحدهم أن لو تحداهم بالقليل استطاعوا، فالتفصيل في الآيات الكريمة أفاد الاحتياط، كما أن الرجل يقول لمن يجحده: ما يستحق علي درهمًا ولا دانقًا ولا حبة، ولا كثيراً ولا قليلاً، ولو قال: ما يستحق علي شيئًا، لأغنى في الظاهر عن ذلك، لكن التفصيل والتنزل دل على الاحتياط وعلى شدة الاستبصار في الإنكار.

هو كما ترى كلام جديد في تلك الآيات لم يُسبق إليه، ولم يقل به بعده إلا الزركشي؛ فقد نقل الكلام برمته، دون تعقيب عليه، أو إشارة إليه؛ حيث قال :" وَقَدْ يَأْتِي الِاحْتِيَاطُ فِي غَيْرِ الْمَقَاطِعِ مِنْ مَجْمُوعِ جُمَلٍ مُتَفَرِّقَةٍ فِي ضُرُوبٍ مِنَ الْكَلَامِ شَتَّى يَحْمِلُهَا مَعْنًى وَاحِدٌ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ ﴾ الْآيَةَ، وقوله: ﴿ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ وقوله: ﴿ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ ﴾ ؛ كَمَا يَقُولُ الرَّجُلُ لِمَنْ يَجْحَدُ مَا يَسْتَحِقُّ عَلَيَّ دِرْهَمًا وَلَا دَانَقًا وَلَا حَبَّةً وَلَا كَثِيرًا وَلَا قَلِيلًا وَلَوْ قَالَ مَا يَسْتَحِقُّ عَلَيَّ شَيْئًا لَأَغْنَى فِي الظَّاهِرِ لَكِنَّ التَّفْصِيلَ أَدَلُّ عَلَى الِاحْتِيَاطِ وَعَلَى شِدَّةِ الِاسْتِبْعَادِ

فِي الْإِنْكَارِ"[1]

الأمر لا يحتاج دليلا في إثبات أن هذا مأخوذ من كلام ابن أبي الإصبع ولا جديد فيه، ولم أجد أحدا من أهل العلم ممن تعرض للإطناب ذكر أن الإيغال قد يأتي على هذا النحو الذي ذهب إليه المصريُّ ومن بعده الزركشي.

ويمكن مناقشة ابن أبي الأصبع بما يأتي:

أولا: هذا المسلك الذي سلكه؛ والذي يجعل الإيغال يأتي من عدة جمل متفرقة يجمعها غرض واحد، هو مخالف لما عليه البلاغيون في تعريفهم للإيغال؛ فهو عند الجميع ختم الكلام بما يفيد نكتة يتم المعنى بدونها، ومرادهم الكلام الذي جاء في موضع واحد، وليس مواضع متعددة، والشواهد التي استشهدوا بها تنطق بهذا، فلا يندرج تعريفهم هذا على صنيع ابن أبي الإصبع، فآية سورة الإسراء فيها إيغال عند جمهور أهل العلم، وعند ابن أبي الإصبع كل الآيات التي تحدى الله بها المشركين هي إيغال احتياط. حتى إيغال الاحتياط يأتي عند القوم في كلام واحد؛ كما في قوله -تعالى-﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴾، فجملة ﴿ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴾إيغال احتياط على النحو الذي سبق بيانه.

ثانيا: أن ما جاء به "يقول الرجل لمن يجحده: ما يستحق علي درهماً ولا دانقاً ولا حبة، ولا كثيراً ولا قليلاً، ولو قال: ما يستحق علي شيئاً، لأغنى في الظاهر عن ذلك، لكن التفصيل والتنزل دل على الاحتياط وعلى شدة الاستبصار في الإنكار".هذا التمثيل لا يصح الاستدلال به على ما ذهب إليه؛ حيث إن هذا الكلام جاء في موضع واحد لدفع توهم أن المخاطب يستحق شيئا بخلاف الآيات التي جاءت متفرقة في القرآن، فبين الآية ونظيرها

(١) البرهان ١/ ٩٧.

أجزاء في المصحف، وسنوات طوال في النزول، وهذه مكية، وتلك مدنية، فإن كان التمثيل لمجرد تقريب فهم المسألة فلا إشكال، وإن كان لتأكيد أن الآيات إيغال احتياط، فالبون بينهما شاسع.

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هل يمكن إدراج هذا النوع تحت فن الإيغال المتعارف عليه عند أهل البلاغة؟

أقول: إن محاولة فهم الآية في إطار سياقها الكبير هو أمر حسنٌ جدا، ولطيفة طيبة من أبي الإصبع، وهو كثير الوقوع على مثل هذه اللطائف، فجمع الآيات ذات الغرض الواحد ودراستها دراسة وافية يساعد على الإلمام بكل ما يتعلق بالآية، وهو ما اصطلح أهل العلم على تسميته بالتفسير الموضوعي، وتزداد أهمية هذا الأمر، وتتجلى لطائفه إذا دُرست تلك الآيات وفق ترتيب النزول، ولولا خشية خروج البحث عن هدفه لتناولت آيات التحدي في كتاب الله -تعالى -في سياق دراسة الإيغال في آية الإسراء.

وبالعودة إلى صنيع المصري لا أجد أحدا من أهل العلم يجعل هذا النوع من الربط بين أجزاء الكلام على النحو الذي قال به إيغالا، ولم يتعرض أحد لما ذهب إليه ابن أبي الإصبع لا بالموافقة أو المخالفة، غير الزركشي؛ حيث أخذ الكلام برمته دون إشارة، على النحو الذي سبقت الإشارة إلية.

إن إلحاق هذا النوع من الكلام بالإيغال يقتضي أمرين:

الأول: أن نجعل حدا جديدا للإيغال حتى يشمل كل الآيات ذات الموضوع الواحد في القرآن؛ كقصصه، والحديث عن الصلاة، والحج ...إلخ، وحتى ينسجم مع ما ذهب إليه ابن أبي الإصبع، وهو ما يسمى بإيغال الاحتياط.

ولو سلكنا هذا المسلك لدخل جُلُّ القرآن في باب الإيغال؛ فطبيعة القرآن أن يتناول

قضية من القضايا، في مواضع مختلفة منه، بحيث يمثل كلُّ موضع مشهدا من مشاهد تلك القضية، فإذا ضُمَّ بعضها إلى بعض خرجت على الوجه الأكمل.

إن من يتتبع قصة من قصص القرآن، أو موضوعا من موضوعات التي تفرقت أجزاؤه في القرآن سيجد تناغما وتناسقا بين أجزائه، فكل جزء يشكل مشهدا من مشاهده، من مجموعه تبرز لنا الصورة كاملة على الوجه الأكمل، فهل يستطيع قائل أن يجعل قصة من هذه القصص أو موضوعًا من تلك الموضوعات إيغالا على النحو الذي ذهب إليه ابن أبي الإصبع.

إن تعريف البلاغيين للإيغال لا يستقيم معه صنيع ابن أبي الإصبع، وما استشهد به يقترب من معنى الإيغال، وليس منه؛ إذ من المسلم به أن الإيغال يكون في كلام واحد،

ولكن يمكن القول بأنه إيغال من جهة المعنى، وليس إيغالا اصطلاحيا، فالمعنى المسوق له الكلام في آية الإسراء قد تم بتمام جملة الإيغال؛ بنهاية الآية الكريمة، ثم جاءت آيات التحدي متفرقة في كتاب الله -تعالى -وهي على ترتيب النزول أولها: آية الإسراء وثانيها: آية يونس وثالثها: آية هود. ورابعها: آية الطور "وكلها مكي" ثم نزل خامسها: آية البقرة في المدينة. [1]، والآيات كلها موضوعها واحد؛ وهو تحدي المشركين بالقرآن، فكانت النتيجة أن عجزوا عنه، والمواضع كلها -كما عند ابن أبي الإصبع -تأكيد لآية الإسراء، حيث تحداهم أولا أن يأتوا بمثل القرآن، فعجزوا، ثم تحداهم بعشر ثم بواحدة، وفائدة هذا التفصيل المبالغة في التحدي، ودفع توهم أن لو طَلَب منهم قدرا يسيرا استطاعوا، فثبت عجزهم عن قليله وكثيره. يقول الشيخ محمد عبد الله دراز:" فانظر هذا النفي المؤكد، بل الحكم المؤبد! هل يستطيع عربي يدري ما يقول أن يصدر هذا الحكم وهو يعلم أن

(١) البرهان: ١/ ١٩٣ .

مجال المساجلات بين العرب مفتوح على مصراعيه، وأن الناقد المتأخر متى أعمل الروية في تعقب قول القائل المتقدم لا يعييه أن يجد فيه فائتًا ليستدرك؛ أو ناقصًا ليكمل، أو كلامًا ليزداد كمالًا؟ ألم يكن يخشى بهذا التحدي أن يثير حميتهم الأدبية فيهبوا لمنافسته وهم جميع حذرون؟ وماذا عساه يصنع لو أن جماعة من بلغائهم تعاقدوا على أن يضع أحدهم صيغة المعارضة، ثم يتناولها سائرهم بالإصلاح والتهذيب كما كانوا يصنعون في نقد الشعر، فيكمل ثانيهم ما نقصه أولهم، وهكذا، حتى يخرجوا كلامًا إن لم يبزه فلا أقل من أن يساميَه ولو في بعض نواحيه؟ ثم لو طوعت له نفسه أن يصدر هذا الحكم على أهل عصره فكيف يصدره على الأجيال القادمة إلى يوم القيامة، بل على الإنس والجن؟ إن هذه مغامرة لا يتقدم إليها رجل يعرف قدر نفسه إلا وهو ماليٌّ يديه من تصاريف القضاء، وخبر السماء، وهكذا رماها بين أظهر العالم، فكانت هي القضاء المبرم سُلِّط على العقول والأفواه، فلم يهم بمعارضته إلا باء بالعجز الواضح، والفشل الفاضح، على مر العصور والدهور."[1]

هذا وهناك مسألة مهمة يجب التنبيه إليها؛ أن التحدي بجملة الإيغال جاء في أول الآيات نزولا؛ آية سورة الإسراء؛ لإثبات عجزهم، وإقامة الحجة عليهم، ثم يأتي التحدي بعشر سور، ثم سورة، وليس معنى هذا أن التحدي بقليله أيسر من التحدي بكثيره "لأن القرآن كله قليله وكثيره على حد سواء في الإعجاز، فليس الإتيان بسورة أسهل من الإتيان بالقرآن كله، فالتحدي في القرآن بالكيف لا بالكم، وبالنوع لا بالمقدار، فلا يهم إذًا أن يكون التحدي بسورة جاء قبل التحدي بعشر سور أو قبل التحدي بالقرآن كله. واستحالة المجيء بمثل سورة من القرآن كاستحالة المجيء بعشر سور، واستحالة المجيء بمثل القرآن كله على حد سواء فكل ذلك متعذر، ولذا فلا أثر للاختلاف في ترتيب آيات التحدي ما دام لا

(١) البرهان: ٧٠.

يترتب عليه أثر في قوة التحدي والعجز كان عن الإتيان بجنس القرآن لا عن مقداره."[1]، وإنما هذا التحدي مجاراة للخصم، وإمعان في التحدي، وحتى يظل تحديه لهم مستمرا باستمرار نزول القرآن، فإذا كان من نزل فيهم الذكر عجزوا عنه، وهم أهل أرباب الفصاحة وأساطينها، فعجز غيرهم ممن جاء بعدهم أولى.

(١) دراسات في علوم القرآن الكريم ٢٧٠، المؤلف: أ. د. فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، الطبعة: الثانية عشرة ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣م.

ثالثا: الإيغال في مقام الحديث عن الرزق.

تمهيد:

قضية الرزق من القضايا التي تشغل بال كل إنسان، في كل زمان ومكان، فما من أحد إلا وهو مشغول برزقه، رجلا كان أو امرأة، غنيا كان أو فقيرا، والقرآن الكريم اهتم بتلك القضية اهتماما بالغا، وتناولها بطريقة بديعة؛ في سياقات مختلفة؛ كحديثه عن أن كل دابة على الله رزقها، وأن الله فضل بعضنا على بعض في الرزق، وأنه -تعالى- يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، وأنه -تعالى- يرزق من يشاء بغير حساب ...إلى غير ذلك من السياقات المختلفة التي لو ضُمَّ بعضها إلى بعض شكلت دستورا كاملا في كل ما يحتاج إليه الإنسان مما له صلة بهذه القضية، فما عليه إلا أن يضرب في الأرض، ثم يأتيه ما كُتِب له من الأرزاق.

وللإطناب في بيان هذه القضية دور بارز، والإيغال صورة من الإطناب التي أدت دورا مهما في بيان الغرض المسوق له الكلام، كما سأبين في الشواهد الآتية:

الشاهد الأول:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ﴾ الذاريات: ٢٢ – ٢٣

هذا الشاهد من أشهر شواهد الإيغال؛ وفيه حديث عن قضية الرزق، فالمعنى قد تمّ عند قوله: ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ ﴾، ثم جاءت جملة الإيغال لتأكيد هذه القضية؛ يقول السيوطي: فَقَوْلُهُ :"مِثْلَ مَا" إلَى آخِرِهِ إيغَالٌ زَائِدٌ عَلَى الْمَعْنَى؛ لِتَحْقِيقِ هَذَا الْوَعْدِ، وَأَنَّهُ وَاقِعٌ مَعْلُومٌ ضَرُورَةً لَا يَرْتَابُ فِيهِ أَحَدٌ"(١)

ثم إن الألفاظ التي تكونت منها جملة الإيغال كانت غاية في تأكيد الغرض المسوق له الكلام؛ فالتشبيه بالنطق دون غيره من صفات الإنسان، كالسمع والبصر، ...يجعل قضية

(١) الإتقان في علوم القرآن٢/ ٢٥٢.

الرزق أكثر وضوحا، وأيسر حصولا، من غيرها من الصفات الأخرى التي تكون للإنسان؛ فآلة الرؤية قد تكون سليمة، ولكن هناك ما يمنع الرؤية؛ كحلول الظلام، وبعد الأشياء عن العين، ...وآلة السمع قد يطرأ ما يحول بين الصوت وسماعه، أما الكلام فهو أسهل ما يكون على الإنسان، لذا كان التشبيه بالنطق أوقع في النفس، وأشد وضوحا من غيره، وقد أفدت في هذا مما قاله ابن عطية الأندلسي (المتوفى: ٥٤٢ هـ): " وشبهه في اليقين به بالنطق من الإنسان، وهو عنده في غاية الوضوح، ولا يمكن أن يقع فيه من اللبس ما يقع في الرؤية والسمع، بل النطق أشد تخلصا من هذه"[١]

كما أن التشبيه بالنطق أقرب إلى الرزق من السمع والبصر؛ حيث إن أهم ما يحتاج إليه الإنسان في الحياة هو الطعام والشراب، والفم أداته، وفيه إشارة إلى أن الرزق مقسوم للإنسان، لا مفر منه، فكما أن من موجبات الحياة الطعام والشراب، كذلك للحال بالنسبة للأرزاق.

وفي الإيغال بتلك الجملة دون غيرها من صفات الإنسان كالسمع والبصر نكتة أخرى؛ تتمثل في أن الرؤية للأشياء قد تحدث دون حركة من العينين، فلا يحتاج الأمر حركة ولا شيء، كذلك الصوت قد نسمع أصواتا دون قصد لسماعها؛ فربما تجلس في مكانك وتأتيك الأصوات دون حركة أو قصد، أما الكلام فلا يقع إلا بتحريك الإنسان فمه؛ وفي ذلك إشارة إلى ما يلزم من حركة للإنسان في الأرض، فلن يدخل طعام جوفا دون حركة من صاحبه، كذلك لابد من حركة في الأرض؛ حتى يأتي الرزق، فمنك الحركة، وعلى الله الرزق، فهذا معنى لطيف أفادته جملة الإيغال، وأمر أخر يتمثل في أن فم الإنسان لا يتأبّى عليه عند تناول طعام أو شراب، كذلك رزق الإنسان لن يتأبى على صاحبه، فالأمر يحتاج جسدا يضرب في

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز٥/ ١٧٦.

الأرض، وقلبا يتوكل على رب الأرض والسماء، يقول ابن حبنكة:" إنّ عبارة:﴿ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ نَطِقُونَ ﴾ جاءت إيغالاً بَدِيعًا بعد انتهاء المعنى المقصود، إذ شبَّهَ ضَمَانَ الرزق للعباد الذي يحرّكون أفواههم عليه في طعامهم، بقدرتهم على النطق حينما ينطقون، أي: كما أقدركم الله على إخراج نطقكم من أفواهكم أقدركم على كسب أرزاقكم وإدخالها إلى بطونكم عن طريق أفواهكم"(١)

هذا وليست جملة الإيغال منفصلة عن الجملة قبلها، بل يخرجان معا من مشكاة واحدة؛ قد جاء القسم للتأكيد، ثم القسم بالربوبية دون غيرها مما يقسم به لنفس المعنى السابق، وحتى تُخْرِجَ من النفس كل شك يطرأ عليها في هذه القضية، فالربوبية من شانها الرعاية والاهتمام، والعمل على كل ما يحتاج إليه المخلوق، فإذا استقرت تلك الصفة في نفس المخلوق، ذهب عنه كلُّ ما يجد من خوف على الرزق، وهذا ما تسعى إليه جملة الإيغال، " فإنه قسم يوجب الفخر لتضمنه التمدح بأعظم قدرة، وأكمل عظمة للحاصل من ربوبية السماء والأرض، وتحقق الوعد بالرزق، حيث أخبر سبحانه أن الرزق في السماء، وأنه رب السماء، فيلزم من ذلك قدرته على الرزق الموعود به دون غيره، فعلم أن لا رازق سواه، وأنه لا يحرم رزقه من خلقه، وأما ما حصل من الإيغال إذ قال في الفاصلة سبحان بعد تمام المعنى: ﴿ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ نَطِقُونَ ﴾ فمثل هذا الوعد بما هو واقع معلوم ضرورة لا يرتاب منها أحد"(٢)

وقريب مما سبق ما قاله الخازن صاحب " لباب التأويل في معاني التنزيل ":"وقيل: شبه تحقيق ما أخبر عنه بتحقيق نطق الآدمي ومعناه إنه لحق كما أنك تتكلم. وقيل: إن معناه

(١) البلاغة العربية٢/ ٨٠.

(٢) تحرير التحبير٣٢٣.

في صدقه ووجوده كالذي تعرفه ضرورة وقال بعض الحكماء معناه كما أن كل إنسان ينطق بلسان نفسه لا يمكنه أن ينطق بلسان غيره كذلك كل إنسان يأكل رزق نفسه الذي قسم له لا يقدر أن يأكل رزق غيره."[1]

هذا ومما يجب التنبيه إليه أن جملة الإيغال أفادت نكتة لفظية؛ وهي المحافظة على الفاصلة، وهي من الأهمية بمكان على النحو الذي سبق بيانه في مواضع متفرقة من البحث.

الشاهد الثاني:

قال تعالى :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴾ فاطر: ٣

في الآية الكريمة حث للناس أن يتذكروا نعمة الله -تعالى -بقلوبهم وألسنتهم، ثم جاء هذا الاستفهام التقريري ﴿ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾؛ حتى يقروا بتلك الحقيقة التى لا شك فيها؛ وهي أنه لا خالق يرزقهم إلا الله.

إن المعنى قد تمّ عند قوله:﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ ﴾، ثم جاءت جملة الإيغال﴿ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴾ بمعنى كيف تنصرفون عن التوحيد إلى الشرك، وقد ثبت أنه لا إله إلا هو، إن جملة الإطناب تفيد ذم المخاطبين، وإقامة الحجة عليهم، وبيان خطأهم فيما ذهبوا إليه. إن الاستفهام التقريري الذي سبق قد أسس للمعنى الذي تضمنته جملة الإيغال؛ وذلك أن الاستفهام تقريري، يفيد أن هذه القضية أمر مسلم بها عند الجميع؛ فلم يدع أحد أنه خلق من قبل، وإذا كان الحال كذلك فبأي وجه ينصرف الإنسان عن الإيمان إلى الكفر .

هذا ومما يجدر الإشارة إليه أن جملة الإيغال لها صلة بقضية الرزق التي أشارت إليها

---

(١) لباب التأويل في معاني التنزيل٤/ ١٩٤، المحقق: محمد علي شاهين، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى – ١٤١٥ هـ.

الآية؛ وذلك أن الحديث عن الرزق جاء في سياق الاستدلال على قضية الوحدانية؛ فالقوم قد أقروا بأنه لا رازق إلا الله، فكيف ينصرفون عنه إلى غيره؟!

ولنا أن نقرأ الآية من غير جملة الإيغال، تجد معنى رائعا قد غاب عنك، فالإيغال أفاد ذم هؤلاء الذين علموا أنه لا رازق غير الخالق، ثم انحرفوا عن الإيمان، ورضوا الكفر طريقا، فلو ذهبت جملة الإيغال لم يكن هناك تعرض لحال هؤلاء الكافرين، يقول البقاعي:" ولما بين أنه الرزاق وحده انقطع أمل كل أحد من غيره حتى من نفسه فحصل الإخلاص فتعين أنه سبحانه الإله وحده فقال:﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ فتسبب الإنكار على من عبد غيره ظاهراً أو باطنًا فقال:﴿ فَأَنَّىٰ ﴾أي فمن أيّ وجه وكيف ﴿ تُؤۡفَكُونَ ﴾أي تصرفون وتقلبون عن وجه السداد في التوحيد بهذه الوجوه الظاهرة إلى الشرك الذي لا وجه له."[1]

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور١٦/ ٩.

المبحث الرابع :
الإيغال في البيان النبوي

تمهيد:

من اللافت للنظر أن الإيغال في البيان النبوي لم يرد له ذكر عند القدماء من أهل العلم البتة؛ فلم يتعرض له أحد من البلاغيين في حديثهم عنه، فإذا كانوا قد استشهدوا عليه بكثير من الشواهد الشعرية، والآيات القرآنية، فإنه في الحديث الشريف لم يلتفت أحد إليه؛ فما ذكروا شاهدا واحدا من شواهده؛ في سياق الاستدلال عليه، حتى شراح الحديث أنفسهم الذين اهتموا بالجانب البلاغي لم يذكروا شيئا فيه.

والحقيقة هذا أمر يدعو للعجب واستوقفني كثيرا، فأخذت أسأل لِمَ لم يستشهدوا عليه بشيء من البيان النبوي؟! هل خلا الحديث الشريف من هذا النوع من الإطناب؟ وإذا كان الحال كذلك، فَلِمَ لم ينبهوا على هذا الأمر؟ ثم إن شراح الحديث الذين تناولوا كثيرا من المسائل البلاغية التي وردت فيه؛ من تشبيه، واستعارة، وكناية، وفصل ووصل، وكثير من صور الإطناب، وأثر هذا كله على المعنى المسوق له الكلام، لم يرد عند واحد منهم ذكرٌ لهذا النوع من الإطناب، وهذا أمر محير، مثير للدهشة، ويدعو للبحث، هل كان صنيعهم هذا نتيجة خلو البيان النبوي من شواهد الإيغال؟، وهذا أمر لا يمكن التسليم به، فلا أعلم أسلوبا بلاغيا ورد في القرآن الكريم وشعر العرب ونثرهم، ولا يكون للبيان نصيب كبير منه؛ ولِمَ لا؟ فالرسول -ﷺ- تكلم بلسانهم، ولا يتصور أن أسلوبا جاء في العربية عامة، والقرآن خاصة، ولا نلتمس له نظيرا في البيان النبوي، فهل سكوتهم يفهم منه أنهم يسيرون على نهج القائلين أنه في الشعر خاصة، ولا نبحث عنه في القرآن، أو الحديث الشريف، وقد تبيّن لنا أن الصواب قول من قال بوجوده في الذكر الحكيم، وحتى من جوّز هذا لم ترد عنده إشارة إليه في البيان النبوي.

وقد قرأت في أحاديث رسول اللهِ -ﷺ- فوجدت الإيغال جاء بصورة واضحة، في سياقات مختلفة، تحتاج أن تُفرد لها دراسة مستقلة، وأذكر الآن شيئا من تلك الشواهد؛ للاستدلال على أن هذا النوع من الإطناب لم يخلو منه البيان النبوي، وهذه بعض المقامات التي ورد فيها.

أولا: الإيغال في مقام الْأَمْرِ بِقِتَالِ النَّاسِ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ.

منه ما رُوِي عَنِ ابْنِ عُمَرَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الإِسْلاَمِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ»(١)

هذا الحديث أصل من أصول الإسلام، وبيان على أن من نطق بالشهادتين كان عصمة له من القتل، وصار له ما للمسلمين، وعليه ما عليهم ...

إن المعنى قد تمَّ عند قوله: -ﷺ- " فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الإِسْلاَمِ"؛ أي إذا نطق أحدهم الشهادة عصم بذلك دمه وماله، إلا بحق الإسلام؛ كأن يُقتل قصاصا، أو يُؤخذ منه مال الزكاة.

فتمام المعنى عند قوله: "إِلَّا بِحَقِّ الإِسْلاَمِ"، ثم جاءت جملة الإيغال "وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ "تفيد معنى جديدا، ونكتة رائعة؛ وهي أننا مأمورون بأن نعامل الناس بظاهر حالهم، فلا نحكم إلا بما تراه أعيننا، وأما بواطن الناس فمردها إلى الله -تعالى-، وهذه صيحة في أذن كل من جعل من نفسه حاكما على الناس، وأخذ يمنح فلانا إيمانا، وغيره كفرا، ويجعل هذا من أهل الجنة، وغيره من أهل النار، فإنَّ نُطْقَ الإنسان للشهادتين كاف لأن يكون في زمرة المسلمين؛ له ما لهم من الحقوق، وعليه ما عليهم من الواجبات، أما السرائر فليس في طاقة

(١) رواه البخاري مسلم في بَاب" فَضِيلَةِ الْعَمَلِ الدَّائِمِ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ وَغَيْرِهِ"ِ.

بشـر أن يكشـف عما فيها، ويحكم على الناس من خلالها، يقول بدر الدين العيني (المتوفى: ٨٥٥ هـ): " وَالْمعْنَى: أَن أُمُور سرائرهم إِلَى الله تَعَالَى، وَأما نَحن فنحكم بِالظَّاهِرِ، فنعاملهم بِمُقْتَضـى ظَاهر أَقْوَالهم وأفعالهم، أَو مَعْنَاهُ: هَذَا الْقِتَال وَهَذِه الْعِصْـمَة إِنَّمَا هُوَ من الْأَحْكَام الدُّنْيَوِيَّة، وَهُوَ مِمَّا يتَعَلَّق بِنَا، وَأما الْأُمُور الأخروية من دُخُول الْجنَّة وَالنَّار وَالثَّوَاب وَالْعِقَاب وكميتهما وكيفيتهما فَهُوَ مفوض إِلَى الله تَعَالَى لَا دخل لنا فِيهَا. "[1]

فجملة الإيغال السابقة تحمل في طياتها سماحة الإسلام، وحرصه على النفس البشرية أن تمتد يد آثم إليها، فليس من حق إنسـان أن يكفر أحدا، ويجعله من أهل النار، فنطق الشـهادتين عصـمة لصـاحبه من القتل، ثم إنها تحمل توبيخا لمن شـغل نفسـه بالحكم على الناس، فإذا كان الإنسان عاجزا عن إدراك كثير من الأمور المتعلقة بذاته، أيستطيع أن يحكم على بواطن الناس؟!، إن جملة الإيغال تتناغم مع قوله : " فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَـمُوا"؛ فما دام علم الباطن خاصـا بالله -تعالى -، فلن يتجرأ أحدٌ على أحدٍ بحجة أنه يضـمر الكفر ويظهر الإسلام، ولقد رأينا المنافقين في زمن الرسول -ﷺ- يعيشون آمنين على أنفسهم وأموالهم، ولا يتعرض أحد لهم بسـوء، فقد أيقن الصـحابة أن ليس من شـأنهم أن ينقبوا عما في نفوس الخلق.

هذا وألمح في جملة الإيغال معنى خفيا تشـعر به ولا تكاد تلمسـه؛ فكما كانت زجرا لمن تسـول له نفسـه أن يقترب ممن نطق الشـهادتين، فإنها تحمل تخويفا لمن كان في قلبه شيء؛ حيث إنه يخفي عن الناس غير ما يظهر؛ فكانت الجملة تذكيرا له بأن ما أضمرته نفُسه وتشبعت به وغاب على الناس، فلن يغيب على الله، وسيكون الجزاء عليه، فإذا أدرك الإنسان هذا عاد لصـوابه، وخلع عن نفاقه، وجعل باطنه كظاهره ؛ فالله -تعالى -جعل حسـابهم

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري١/ ١٧، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

كالوجب عليه؛ وهذا فيه من التخويف للمنافقين ما فيه، يقول ابن علان :"وحاصله تفويض أمر بواطنهم إليه سبحانه لأنه الذي يتولى خبايا أسرارهم وخفايا ضمائرهم من إيمان وكفر ونفاق، وأما الرسول فإنما أمر أن يحكم بظواهر أفعالهم وأقوالهم، ولفظ «علي» وإن كانت مشعرة بالإيجاب فهو على سبيل التشبيه البليغ: أي هو كالواجب عليه تعالى بمقتضى إخباره بوقوعه حذراً من الخلف في أخباره تعالى شرعًا بمقتضى وعده فلا يخلف الميعاد"(١)

ثانيا: الإيغال في مقام المداومة على العمل الصالح:

عَنْ عَائِشَةَ-رضي الله عنها-، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللهِ تَعَالَى أَدْوَمُهَا، وَإِنْ قَلَّ»(٢)

المداومة على الأعمال الصالحة من أحب الأعمال إلى الله -تعالى -، وهذا ما حث عليه الحديث الشريف، فما قيمة أن يعمل الإنسان طاعة كبيرة ثم يتركها ويتكاسل عنها، ثم لا يعود إليها، إن المداومة على العمل الصالح تجعل الإنسان دوما في قرب من الله، وقطع العمل الصالح يبعده عن هذا القرب.

إن المعنى قد تمّ بتمام جملة "أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللهِ تَعَالَى أَدْوَمُهَا"، ثم جاءت جملة الإيغال " وَإِنْ قَلَّ"؛ لنكتة رائعة، هي بيان أن قليلا داوم عليه صاحبه خير من كثير ينقطع، يقول النووي:" وَفِيهِ الْحَثُّ عَلَى الْمُدَاوَمَةِ عَلَى الْعَمَلِ، وَأَنَّ قَلِيلَهُ الدَّائِمَ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ يَنْقَطِعُ، وَإِنَّمَا كَانَ الْقَلِيلُ الدَّائِمُ خَيْرًا مِنْ الْكَثِيرِ الْمُنْقَطِعِ؛ لِأَنَّ بِدَوَامِ الْقَلِيلِ تَدُومُ الطَّاعَةُ وَالذِّكْرُ

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ٣/ ٢٧٠، الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، الطبعة: الرابعة، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م.

(٢) رواه البخاري باب" القَصْدِ وَالمُدَاوَمَةِ عَلَى العَمَلِ "، ومسلم بَاب فَضِيلَةِ الْعَمَلِ الدَّائِمِ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ وَغَيْرِهِ".

وَالْمُرَاقَبَةُ وَالنِّيَّةُ وَالْإِخْلَاصُ وَالْإِقْبَالُ عَلَى الْخَالِقِ ﷻ وَيُثْمِرُ الْقَلِيلُ الدَّائِمُ بِحَيْثُ يَزِيدُ عَلَى الْكَثِيرِ الْمُنْقَطِعِ أَضْعَافًا كَثِيرَةً"(١)

ثم إن الانقطاع عن الطاعة وترك العمل الصالح أمرٌ مذموم؛ أليس من يحفظ القرآن ويهجره، ولا يداوم عليه مذموما، ولقد عاتب رَسُولُ اللهِ ﷺ عبد الله بن عمرو بن العاص لأنه لم يداوم على قيام الليل؛ يقول عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ العَاصِ رضي الله عنهما، قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَا عَبْدَ اللهِ، لاَ تَكُنْ مِثْلَ فُلاَنٍ كَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ، فَتَرَكَ قِيَامَ اللَّيْلِ"(٢)، فعدم المداومة على العمل الصالح تدخل صاحبه دائرة الذم، وقد أفدت في ذلك مما قاله ابنُ حجر:" أَنَّ الْمُدِيمَ لِلْعَمَلِ يُلَازِمُ الْخِدْمَةَ فَيُكْثِرُ التَّرَدُّدَ إِلَى بَابِ الطَّاعَةِ كُلَّ وَقْتٍ لِيُجَازَى بِالْبِرِّ لِكَثْرَةِ تَرَدُّدِهِ فَلَيْسَ هُوَ كَمَنْ لَازَمَ الْخِدْمَةَ مَثَلًا ثُمَّ انْقَطَعَ وَأَيْضًا فَالْعَامِلُ إِذَا تَرَكَ الْعَمَلَ صَارَ كَالْمُعْرِضِ بَعْدَ الْوَصْلِ فَيَتَعَرَّضُ لِلذَّمِّ وَالْجَفَاءِ وَمِنْ ثُمَّ وَرَدَ الْوَعِيدُ فِي حَقِّ مَنْ حَفِظَ الْقُرْآنَ ثُمَّ نَسِيَهُ وَالْمُرَادُ بِالْعَمَلِ هُنَا الصَّلَاةُ وَالصِّيَامُ وَغَيْرُهُمَا مِنَ الْعِبَادَاتِ قَوْلُهُ مَا تُطِيقُونَ أَيْ قَدْرَ طَاقَتِكُمْ وَالْحَاصِلُ أَنَّهُ أَمَرَ بِالْجِدِّ فِي الْعِبَادَةِ وَالْإِبْلَاغِ بِهَا إِلَى حَدِّ النِّهَايَةِ لَكِنْ بِقَيْدِ مَالا تَقَعُ مَعَهُ الْمَشَقَّةُ الْمُفْضِيَةُ إِلَى السَّآمَةِ وَالْمَلَالِ."(٣)

هذا والعمل القليل الذي يداوم عليه صاحبه أوقع أثرا على النفس من كثير ينقطع ، أيستوي من قام ليله كله، ثم ترك ذلك ونسيه، بمن داوم على قيامه ولو ركعتين؟، وهل من قرأ القرآن كله في يوم أو يومين، ثم هجره، يستوي بمن جعل لنفسه وردا، ولو بضع آيات

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج٦/ ٧١ الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٢.

(٢) صحيح البخاري، بَابُ مَا يُكْرَهُ مِنْ تَرْكِ قِيَامِ اللَّيْلِ لِمَنْ كَانَ يَقُومُهُ.

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري١١/ ٢٨، الناشر: دار المعرفة – بيروت، ١٣٧٩.

داوم عليها في كل يوم ولية، لا شـــك أن الثاني في كل أوقع أثرا على النفس من الأول، إن قطرات الماء إذا دام صـبها كفيلة بأن تجعل لها أثرا في الصـخر، ولو ضـرب البحرُ بأمواجه حجرا مرة واحدة لتفرق الماء هنا وهناك وما ترك أثرا فيه، و في هذا المعنى يقول المناوي صـاحب "فيض القدير" :" قال الغزالي: خير الأمور أدومها وإن قل ومثال القليل الدائم كقطرات من الماء تتقاطر على الأرض على التوالي فهي تحدث فيها خضـرا لا محالة ولو وقعت على حجر والكثير المتفرق كماء صب دفعة واحدة لا يتبين له أثر"(١)

أيضا جملة الإيغال تشير من طرف خفي إلى أن الأصل في العمل التيسير، فلا يكلف الله نفسـا إلا وسـعها، وهذه رسـالة إلى الذين يأخذون الناس بالشـدة، ظنا منهم أنه الطريق الأمثل في العبادة؛ فيكلفون الناس ما لا يطيقون، فتكون النتيجة صـدودا عن الطاعة، فلو فهم هؤلاء هذا الحديث ما شـددوا وما ضـيقوا، وكان دعوتهم إلى الله -تعالى- نابعة من هدي رسول الله -ﷺ- فجعلوا الناس مداومين على الطاعة، ولو كانت بالقليل.

بهذا يتبين لنا أن جملة الإيغال جاءت مفيدة عدة نكات؛ كبيان أن القليل الذي يداوم عليه صاحبه خير من كثير ينقطع، وأن المداومة تجعل الإنسان في قرب من ربه، وقطع العبادة يدخل صـاحبها دائرة العتاب والذم، كما أفاد الإيغال التنبيه على أخذ الناس باليسـير، وعدم تكليفهم ما لا يطيقون ...إلى غير ذلك من النكات التي تظهر إذا قلب الإنســان في بلاغة هذا الإطناب.

ثالثا: الإيغال في مقام الحديث عن خير الصدقة:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «خَيْرُ الصَّدَقَةِ مَا كَانَ عَنْ ظَهْرِ غِنًى، وَابْدَأْ بِمَنْ

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير٣/ ٤٧٥، الناشر: المكتبة التجارية الكبرى – مصر، الطبعة: الأولى، ١٣٥٦ هـ.

تَعُولُ»

من المعلوم أن أفعال الخير تتفاوت في درجاتها؛ فبعضها أفضل من بعض، وهذا الحديث يتناول شيئا من هذا، فالصدقة وإن كانت محمودة إلا أن أفضلها ما كان عن ظهر غنى، أي تركت صاحبها على شيء من الغنى، فلم يخرج كلَّ ما في يده ويبقى فقيرا، يقول النووي:" قَوْلُهُ ﷺ "وَخَيْرُ الصَّدَقَةِ عَنْ ظَهْرِ غِنًى"

مَعْنَاهُ أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ مَا بَقِيَ صَاحِبُهَا بَعْدَهَا مُسْتَغْنِيًا بِمَا بَقِيَ مَعَهُ وَتَقْدِيرُهُ أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ مَا أَبْقَتْ بَعْدَهَا غِنًى يَعْتَمِدُهُ صَاحِبُهَا وَيَسْتَظْهِرُ بِهِ عَلَى مَصَالِحِهِ وَحَوَائِجِهِ وَإِنَّمَا كَانَتْ هَذِهِ أَفْضَلَ الصَّدَقَةِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَنْ تَصَدَّقَ بِجَمِيعِ مَالِهِ لِأَنَّ مَنْ تَصَدَّقَ بِالْجَمِيعِ يَنْدَمُ غَالِبًا أَوْ قَدْ يَنْدَمُ إِذَا احْتَاجَ وَيَوَدُّ أَنَّهُ لَمْ يَتَصَدَّقْ بِخِلَافِ مَنْ بَقِيَ بَعْدَهَا مُسْتَغْنِيًا فَإِنَّهُ لَا يَنْدَمُ عَلَيْهَا بَلْ يُسَرُّ بِهَا "(١)

إن المعنى قد تمَّ عند قوله:" مَا كَانَ عَنْ ظَهْرِ غِنًى"، ثم جاءت جملة الإيغال " وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ"؛ تفيد عدة نكات حث عليها الحديث الشريف، وهي بيان أن أفضل النفقة هي التي ينفقها الإنسان على من يعول؛ كالوالدين، والزوجة، والأبناء، وغيرهم ممن يلزم الإنسان نفقتهم، فربما يعتقد بعض الناس أن النفقة على من يعول لا ثواب فيها، فجاءت جملة الإيغال لإفادة هذا المعنى؛ من تقديم نفقة الأقربين على غيرهم، فهي من مشكاة قول ربنا - -﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ البقرة: ٢١٥، يقول ابن بطال :" وقوله - عليه السلام -: "وابدأ بمن تعول" ، ولم يذكر إلا الصدقة يدل أن نفقته على من يعول من أهل وولد محسوب له في الصدقة، وإنما أمرهم الله أن يبدءوا بأهليهم خشية أن يظنوا أن النفقة

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج٧/ ١٣٥.

على الأهل لا أجر لهم فيها، فعرفهم عليه السلام أنها لهم صدقة حتى لا يخرجوها إلى غيرهم إلا بعد أن يقوتوهم. قال الطبري: وقوله -عليه السلام -: "وابدأ بمن تعول" ، إنما قال ذلك؛ لأن حق نفس المرء عليه أعظم من حق كل أحد بعد الله، فإذا صح ذلك فلا وجه لصرف ما هو مضطر إليه إلى غيره، إذ كان ليس لأحد إحياء غيره بإتلاف نفسه وأهله، وإنما له إحياء غيره بغير إهلاك نفسه وأهله وولده، إذ فرض عليه النفقة عليهم، وليست النفقة على غيرهم فرضًا عليه، ولا شك أن الفرض أولى بكل أحد من إيثار التطوع عليه."[١]

فجملة الإطناب فيها حث على النفقة على الأقربين، وترغيب فيها؛ فمتى علم الإنسان أن نفقته عليهم له فيها أجر لن يتكاسل عنها، ولقد قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "دِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي رَقَبَةٍ، وَدِينَارٌ تَصَدَّقْتَ بِهِ عَلَى مِسْكِينٍ، وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ، أَعْظَمُهَا أَجْرًا الَّذِي أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ"[٢]

بهذا يتبين ما لجملة الإيغال من أثرٍ في الدلالة على المعنى المسوق له الكلام، وهي وإن جاءت بعد تمام الكلام إلا أنها بيّنت أي الصدقة أفضل، وأن الإنسان إذا أنفق على أهله بحكم العادة ولم يخطر بباله أن لهذا أجرا كبيرا، فإنه بلا شك إذا عرف ذلك ينفق وهو في غاية السعادة، ثم تحمل رسالة إلى من ينفقون في كل شيء ويبخلون على أهلهم؛ فالإنفاق جاء في سياق الصدقة حتى لا يتكاسل أحد عن حقوق من وجبت عليه نفقتهم.

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال٧/ ٥٠٣

(٢) رواه البخاري، بَابُ فَضْلِ النَّفَقَةِ عَلَى الْعِيَالِ وَالْمَمْلُوكِ، وَإِثْمِ مَنْ ضَيَّعَهُمْ أَوْ حَبَسَ نَفَقَتَهُمْ عَنْهُمْ.

رابعا: الإيغال في مقام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

عن سَعِيدٍ -رضي الله عنه- قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ"[1]

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من سمات الأمة المحمدية، فما استحقت الخيرية إلا به قال -تعالى-: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ آل عمران: ١١٠، والحديث السابق أصل في هذا الباب، فمتى رأى الإنسان منكرا وجب عليه أن يغيره على قدر استطاعته.

ومن المعلوم أن المنكرات درجات؛ فبعضها أكبر من بعض، والناس أمامها أيضا درجات، فمنهم من يقدر على تغيير المنكر، ومنهم من يقف عاجزا أمام تغييره.

ولما كان النَّهْي عَنِ الْمُنْكَرِ من الإيمان بيّن النبي -ﷺ- أن كل الناس بإمكانه أن يدفع المنكر؛ فإن استطاع أن يغير بيده فليفعل، فإن عجز فبلسانه، فإن عجز فبقلبه.

إن المعنى قد تم عند قوله:" فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ"، ثم جاءت جملة الإيغال:" وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ"؛ لفوائد متعددة؛ منها بيان أن النهي عن المنكر جزء من الإيمان؛ وفي ذلك حث على فعل المأمور به، وترك التقاعس عنه، فمن تركه وهو قادرٌ عليه، فقد ترك شيئا من الإيمان، يقول ابن رجب الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥ هـ):" قوله -ﷺ- في الذي يُنكر بقلبه: "وذلك أضعفُ الإيمان" يدلُّ على أنَّ الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكرِ من خصال الإيمان، ويدلُّ على أنَّ من قدرَ على خَصلةٍ من خصال الإيمان وفعلها، كان أفضلَ مِمَّن

(١) رواه مسلم باب " بَاب بَيَانِ كَوْنِ النَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ مِنَ الْإِيمَانِ، وَأَنَّ الْإِيمَانَ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ، وَأَنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاجِبَانِ".

تركها عجزاً عنها"[١]

وجملة الإيغال تفيد الحث على تغيير المنكر باليد أو اللسان، ولا يرضى لنفسه أن يكون من هؤلاء المنكرين بالقلب فقط، فكلمة " أضعف الإيمان" تحث المخاطبين أن يدفعوا المنكر باليد واللسان، فأضعف الإيمان لا يرضى به أصحاب الهمم العالية.

وفي جملة الإيغال جاء المسند إليه معرفا باسم الإشارة الذي يفيد البعد، تنزيلا للبعد المعنوي منزلة البعد الحسي، وكان الإنكار بالقلب فقط أمر مستبعد، لا يجب أن يكون في مؤمن، وإنما المؤمن شجاع، لا يرضى من الإيمان إلا بأعلى المنازل منه، وأما المنكرون بالقلب فهم تلك الفئة العاجزة؛ التي لا طاقة لتغير بفعل أو قول، ولو كانوا يستطيعون الإنكار لفعلوا، من أذلك بيّن أن لا عذر لهم؛ فليس أماهم إلا الإنكار بالقلب، وذلك أضعف الإيمان.

وكم كانت جملة الإيغال كاشفة لحال هؤلاء؛ حيث جعل ما فعلوا أضعف الإيمان، على الرغم من إرادتهم تغيير المنكر، ولكنهم عاجزون، فما بال من يقدر عليه ولا ينكر إلا بالقلب، أو يقدر ولا ينكر لا بقلب ولا غيره.

(١) جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم ٣/ ٩٥٩، تحقيق: الدكتور محمد الأحمدي أبو النور، الناشر: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م.

الخاتمــة

الحمد لله رب العالمين، والصــلاة والســلام على أفصــح الخلق أجمعين، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، وبعد ...

فما ســبق كانت دراســة لنوع من أنواع الإطناب، دار حوله كثيرٌ من الكلام، وأحاطه شيء من اللبس بينه وبين شبيهه من أنواع الإطناب الأخرى، وقد أثمرت الدراسة عدة نتائج؛ منها:

١- أثبت البحث أنّ قدامة بن جعفر (المتوفى: ٣٣٧ هـــ) هو أوّل من أطلق مصــطلح " الإيغال" على هذا النوع من الإطناب، فلا يُعرف أحد قبله اســتعمل هذا المصــطلح، وكانت تســميته مســتمدة من دلالته؛ على النحو الذي بينتُه في العلاقة بين المعنى اللغوي والاصــطلاحي، ثم بينت الدراســة أن ابن الأثير قد جانبه الصــواب عندما جعل هذا الفن من مستخرجات أبي هلال العسكري.

٢- بينت الدراســة أن امرأ القيس أول من ابتكر الإيغال في شــعره، وتبعه زهير، ثم تبعهما الأعشى، كما ورد عند ابن رشيق وغيره.

٣-أظهر البحثُ الفرق بين الإيغال وغيره من أنواع الإطناب، وأن هناك خلطا بينهما؛ حتى رأينا أســامة من منقذ وغيره من أهل العلم يطلقون شــواهد الإيغال على التتميم، فبينت الدراسة أن إطلاق مصطلح الإيغال على هذه الشواهد أولى وأليق، ويتفق مع مدلول هذا النوع من الإطناب.

٤-ردت الدراســة قول ابن رشــيق؛ المتمثل في أن الإيغال لا يكون إلا في الشــعر، ولا يطلب مثله في القرآن، وتمت مناقشــة تلك المسـألة مناقشــة علمية، وتبيّن أن الصــواب خلاف ما

ذهب إليه، وأن ما قاله دعوة مرسلة لا ينهض بها دليل، وأهل العلم كافة على وجوده في القرآن الكريم.

٥-ناقش الباحثُ ابنَ أبي الإصبع في مسألة مهمة؛ تتمثل في أن الإيغال يأتي عنده من عدة جمل متفرقة يجمعها غرض واحد، وهو مخالف لما عليه البلاغيون في تعريفهم للإيغال؛ فهو عند الجميع ختم الكلام بما يفيد نكتة يتم المعنى بدونها، ومرادهم الكلام الذي جاء في موضع واحد، وليس مواضع متعددة؛ جاء ذلك في سياق الحديث عن الإيغال في قوله -تعالى- ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ .."، وما ذهب إليه جيد في الدراسة، ولكن لا يمكن تسميته إيغالا.

٦-أثبتت الدراسة أن الإيغال في البيان النبوي لم يلق حظه من الدراسة؛ فلم يرد له شواهد عند واحد من أهل العلم البتة، حتى شراح الحديث أنفسهم لم يبينوا شاهدا فيه، ولقد رأينا أنه يأتي في مقامات كثيرة، كان للإيغال فيها الحظ الأوفى في بيان الغرض المسوق له الكلام.

هذا ويوصي الباحث بأمرين مهمين:

الأول: أن تفرد للإيغال في الذكر الحكيم دراسة مستقلة؛ تحصي شواهده، وتبيّن أسراره، فإن ما جاء في كتب أهل العلم من شواهد قرآنية للإيغال قليل جدا، لا يتجاوز أصابع اليدين، وفي الحقيقة شواهده في آي الذكر كثيرة، ومقاماته متنوعة، فهي بحاجة إلى دراسة مستقلة.

الثاني: الإيغال في البيان النبوي بحاجة إلى دراسة مستقلة؛ فلم نجد له شواهد من السنة

عند أهل العلم البتة، وهو موجود فيها بكثرة، فعلى الباحثين أن يولوا وجوههم قبل تلك الموضوعات التي لم تأخذ حظها من البحث.

هذا وأسال الله -تعالى -أن يسامحني على ما وقعت فيه من خطأ أو تقصير، إنه حسبنا ونعم الوكيل، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

ثبت المصادر والمراجع

١-إعجاز القرآن لأبي بكر الباقلاني محمد بن الطيب (المتوفى: ٤٠٣ هـ) ، المحقق: السيد أحمد صقر، الناشر: دار المعارف – مصر، الطبعة: الخامسة، ١٩٩٧م.

٢-الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١ هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: ١٣٩٤ هـ/ ١٩٧٤ م.

٣-الأعلام: خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (المتوفى: ١٣٩٦ هـ) الناشر: دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر – أيار / مايو ٢٠٠٢ م

٤-أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل، المؤلف: زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (المتوفى: ٦٦٦ هـ) تحقيق: د. عبد الرحمن بن إبراهيم المطرودى، الناشر: دار عالم الكتب المملكة العربية السعودية – الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٣ هـ، ١٩٩١ م.

٥-الإيضاح في علوم البلاغة، المؤلف: جلال الدين القزويني الشافعي، المعروف بخطيب دمشق (المتوفى: ٧٣٩ هـ) المحقق: محمد عبد المنعم خفاجي، الناشر: دار الجيل – بيروت.

٦-بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: لمجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (المتوفى: ٨١٧ هـ) المحقق: محمد علي النجار، الناشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة.

٧-البحر المحيط في التفسير: لأبي حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥ هـ) المحقق: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر – بيروت، الطبعة: ١٤٢٠ هـ

٨-البديع في نقد الشعر، لأبي المظفر مؤيد الدولة مجد الدين أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني الكلبي الشيزري (المتوفى: ٥٨٤ هـ)
بتحقيق: الدكتور أحمد أحمد بدوي، الدكتور حامد عبد المجيد، مراجعة: الأستاذ إبراهيم مصطفى، الناشر: الجمهورية العربية المتحدة - وزارة الثقافة والإرشاد القومي - الإقليم الجنوبي - الإدارة العامة للثقافة.
٩-البرهان في علوم القرآن، لأبي عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (المتوفى: ٧٩٤ هـ) المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة: الأولى، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م، الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي .
١٠-البلاغة العربية، عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي (المتوفى: ١٤٢٥ هـ) الناشر: دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م
١١-تاريخ آداب العرب: مصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر الرافعي (المتوفى: ١٣٥٦ هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي.
١٢-تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن: عبد العظيم بن الواحد بن ظافر ابن أبي الإصبع العدواني، البغدادي ثم المصري (المتوفى: ٦٥٤ هـ)، تقديم وتحقيق: الدكتور حفني محمد شرف، الناشر: الجمهورية العربية المتحدة - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي.
١٣ -تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (المتوفى: ٧٧٤ هـ) المحقق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م.
١٤-جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم: زين الدين عبد

الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥ هـ) المحقق: شعيب الأرناؤوط - إبراهيم باجس، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة: السابعة، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١م.

١٥-الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه = صحيح البخاري، المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ

١٦-الجدول في إعراب القرآن الكريم، المؤلف: محمود بن عبد الرحيم صافي (المتوفى: ١٣٧٦ هـ)، الناشر: دار الرشيد، دمشق - مؤسسة الإيمان، بيروت، الطبعة: الرابعة، ١٤١٨هـ.

١٧-حاشية الدسوقي على مختصر المعاني لسعد الدين التفتازاني (المتوفى: ٧٩٢)، المؤلف: محمد بن عرفة الدسوقي، المحقق: عبد الحميد هنداوي، الناشر: المكتبة العصرية، بيروت

١٨-خزانة الأدب وغاية الأرب، المؤلف: ابن حجة الحموي، تقي الدين أبو بكر بن علي بن عبد الله الحموي الأزراري (المتوفى: ٨٣٧ هـ)، المحقق: عصام شقيو، الناشر: دار ومكتبة الهلال-بيروت، دار البحار- بيروت، الطبعة: الطبعة الأخيرة ٢٠٠٤م.

١٩-خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية المؤلف: عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني (المتوفى: ١٤٢٩ هـ) الناشر: مكتبة وهبة، الطبعة: الأولى، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م.

٢٠-دراسات في علوم القرآن الكريم، المؤلف: أ. د. فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، الطبعة: الثانية عشرة ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣م.

٢١-درة التنزيل وغرة التأويل، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عبد الله الأصبهاني المعروف

بالخطيب الإسكافي (المتوفى: ٤٢٠ هـ)، دراسة وتحقيق وتعليق: د/ محمد مصطفى آيدين، الناشر: جامعة أم القرى، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.

٢٢-دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، المؤلف: محمد علي بن محمد بن علان بن إبراهيم البكري الصديقي الشافعي (المتوفى: ١٠٥٧ هـ) اعتنى بها: خليل مأمون شيحا، الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، الطبعة: الرابعة، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م.

٢٣-روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، المؤلف: شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (المتوفى: ١٢٧٠ هـ)، المحقق: علي عبد الباري عطية، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ

٢٤-سر الفصاحة، المؤلف: أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي (المتوفى: ٤٦٦ هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية.

٢٥-سرور النفس بمدارك الحواس الخمس، المؤلف: أبو العباس أحمد بن يوسف التيفاشي (المتوفى: ٦٥١ هـ) المحقق: إحسان عباس، الناشر: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة: الأولى١٩٨٠.

٢٦-شرح صحيح البخاري لابن بطال، المؤلف: ابن بطال أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك (المتوفى: ٤٤٩ هـ) تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، دار النشر: مكتبة الرشد - السعودية، الرياض، الطبعة: الثانية، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣م.

٢٧-الصناعتين، المؤلف: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥ هـ)، المحقق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: المكتبة العنصرية – بيروت، عام النشر: ١٤١٩ هـ.

٢٨-الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، المؤلف: يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الحسيني العلويّ الطالبي الملقب بالمؤيد بالله (المتوفى: ٧٤٥ هـ)، الناشر: المكتبة العنصرية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ.

٢٩-عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، المؤلف: أحمد بن علي بن عبد الكافي، أبو حامد، بهاء الدين السبكي (المتوفى: ٧٧٣ هـ)، المحقق: الدكتور عبد الحميد هنداوي، الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٣ م.

٣٠-عمدة القاري شرح صحيح البخاري، المؤلف: أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابى الحنفي بدر الدين العيني (المتوفى: ٨٥٥ هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٣١-العمدة في محاسن الشعر وآدابه، المؤلف: أبو على الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (المتوفى: ٤٦٣ هـ)، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: دار الجيل، الطبعة: الخامسة، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م.

٣٢-فتح الباري شرح صحيح البخاري، المؤلف: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، الناشر: دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي.

٣٣-فيض القدير شرح الجامع الصغير، المؤلف: زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري (المتوفى: ١٠٣١ هـ) الناشر: المكتبة التجارية الكبرى – مصر، الطبعة: الأولى، ١٣٥٦.

٣٤-كتاب دلائل الإعجاز، المؤلف: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد

الجرجاني الدار (المتوفى: ٤٧١ هـــ)، المحقق: محمود محمد شاكر أبو فهر، الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة، الطبعة: الثالثة ١٤١٣ هـ – ١٩٩٢م.

٣٥-كشف المعاني في المتشابه من المثاني، المؤلف: أبو عبد الله، محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكناني الحموي الشافعي، بدر الدين (المتوفى: ٧٣٣ هـ) تحقيق: الدكتور عبد الجواد خلف، الناشر: دار الوفاء -المنصورة، الطبعة: الأولى، ١٤١٠ هـ/ ١٩٩٠ م.

٣٦-كتاب التعريفات، المؤلف: علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (المتوفى: ٨١٦ هـــ) المحقق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت –لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٠٣ هـ -١٩٨٣م.

٣٧-لباب التأويل في معاني التنزيل، المؤلف: علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي أبو الحسن، المعروف بالخازن (المتوفى: ٧٤١ هـ)، المحقق: تصحيح محمد علي شاهين، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٥ هـ.

٣٨-لسان العرب، المؤلف: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: ٧١١ هـــ)، الناشر: دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤١٤ هـ.

٣٩-معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، المؤلف: عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن أحمد، أبو الفتح العباسي (المتوفى: ٩٦٣ هـــ)، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: عالم الكتب – بيروت.

٤٠-مفاتيح الغيب، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦ هـــ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠ هـ

٤١-المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، المؤلف: نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، الجزري، أبو الفتح، ضياء الدين، المعروف بابن الأثير الكاتب (المتوفى: ٦٣٧ هـ) المحقق: محمد محي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر – بيروت، عام النشر: ١٤٢٠ هـ.

٤٢-المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، المؤلف: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: ٥٤٢ هـ) المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤٢٢ هـ

٤٣-نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، المؤلف: إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (المتوفى: ٨٨٥ هـ) الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

٤٤-نقد الشعر: المؤلف: قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادي، أبو الفرج (المتوفى: ٣٣٧ هـ) الناشر: مطبعة الجوائب – قسطنطينية، الطبعة: الأولى، ١٣٠٢ هـ .

٤٥-النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم، المؤلف: محمد بن عبد الله دراز (المتوفى: ١٣٧٧ هـ) اعتنى به: أحمد مصطفى فضلية، قدم له: أ. د. عبد العظيم إبراهيم المطعني، الناشر : دار القلم للنشر والتوزيع، الطبعة : ١٤٢٦ هـ- ٢٠٠٥م.

فهرس الموضوعات

المحتويات

الملخص ١٠٧٧

المقدمة ١٠٧٩

تمهيد ١٠٨١

المبحث الأول: الخلط بين الإيغال وغيره من أنواع الإطناب ١٠٩٠

أوّلا: الفرق بين الإيغال والتتميم ١٠٩١

ثانيا: الفرق بين الإيغال والتذييل ١١٠٢

ثالثا: الفرق بين الإيغال والتكميل ١١٠٥

المبحث الثاني: الإيغال في الذكر الحكيم بين القبول والرَّدِّ ١١٠٨

تمهيد ١١٠٨

المبحث الثالث: الإيغال في القرآن الكريم مقاماته وأسراره ١١١٤

أولا: الإيغال في مقام إعراض الكافرين عن الحق ١١١٤

جملة الإيغال ودلالتها على المعنى المسوق له الكلام: ١١١٥

ثانيا: الإيغال في مقام التحدي بالقرآن. ١١٣٠

ثالثا: الإيغال في مقام الحديث عن الرزق ١١٤٣

المبحث الرابع : الإيغال في البيان النبوي ١١٤٨

تمهيد..... ١١٤٨

أولا: الإيغال في مقام الْأَمْرِ بِقِتَالِ النَّاسِ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ. ١١٤٩

ثانيا: الإيغال في مقام المداومة على العمل الصالح ١١٥١

ثالثا: الإيغال في مقام الحديث عن خير الصدقة..... ١١٥٣

رابعا: الإيغال في مقام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ١١٥٦

الخاتمـــة..... ١١٥٨

ثبت المصادر والمراجع..... ١١٦١

فهرس الموضوعات ١١٦٨